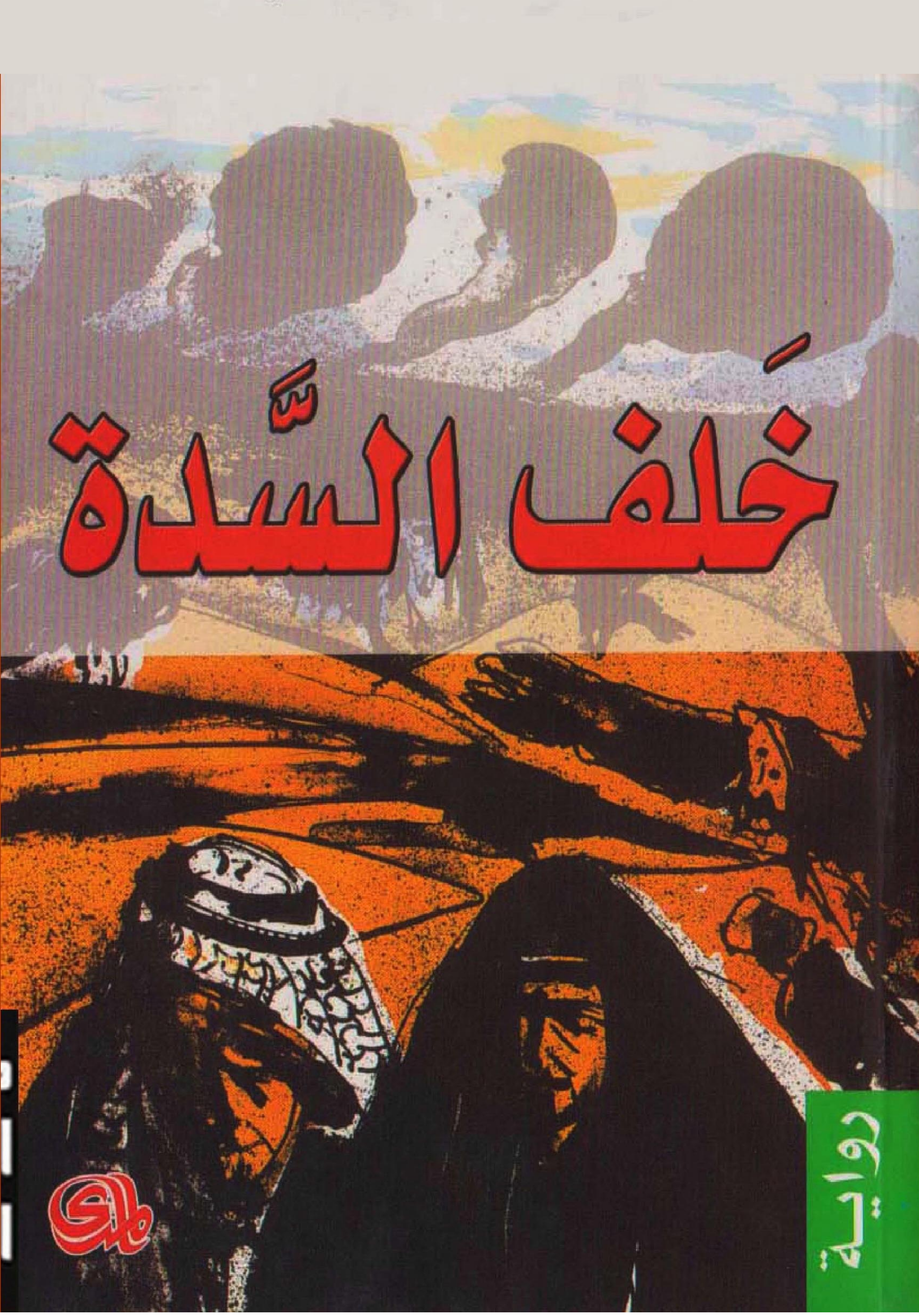
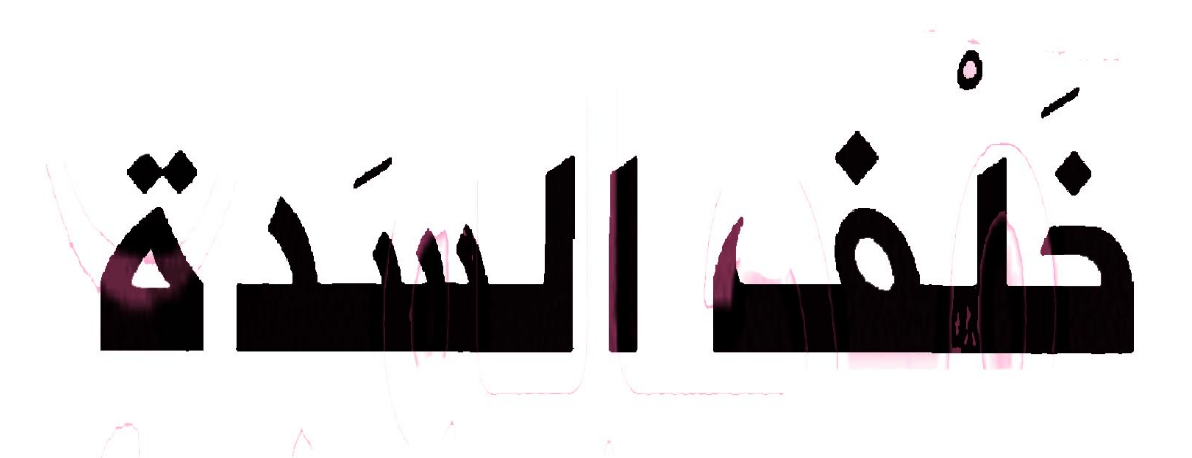
عبدالله صخي





عبدالله صخي



خَلْفَ السَدة

رواية





المـــــؤلـــــف : عبد الله صخي
عنوان الكتـــاب : خَلْف السَّدة
النـاشــــــــــر : المدى
الطبـعــة الأولى : ٢٠٠٨

Author: Abdullah Sakhy
Title: Khalf Al Saddah
(Behind the Dam)
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦، ٧٥٢٦١٧-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com



الفصل الأول

تلك الليلة استيقظ سلمان اليونس فرحا.

كانت ليلة شتائية باردة، في صباحها شاهد الأطفال المياه متجمدة في البرك التي خلفتها أمطار الأيام الماضية. بهدوء، كي لا يوقظ ابنته التي نامت مبكرا متدثرة بلحاف سميك فوق سرير خشبي عتيق، تلمس وجه زوجته وهمس:

- "مكية"

جفلت وقالت:

- "اتركني بردانة".

اقترب أكثر وهو يمسك يدها تحت الغطاء وقال:

- "رأيت حلما".

فتحت عينيها بصعوبة. جلست في فراشها تعدل فوطتها التي سقطت على كتفها فكشفت عن جديلة طرية لمعت أطرافها في شعاع الفانوس الواهن. بشفتين مرتعشتين وقلب واجف روى لها حلمه. قال إنه رأى نفسه يسير فوق أرض سهلية منبسطة جرداء لا حدود لها، تشبه أرض البلدة في سنوات التكوين الأولى عندما قدم أسلافه المهاجرون الأوائل. كانت مغطاة بتراب أبيض دقيق.

أنصتت اليه باستغراق، وكان نصف وجهها تحجبه العتمة. قال إنه كان يمشي مسرعا إذ ينبغي عليه الوصول إلى مكان بعيد قبل مغيب الشمس. لم يكن يعرف وجهته بالضبط. فجأة ظهر له رجل على حصان وسيم تثير سنابكه عاصفة من غبار. اهتز قلبها بورع. لملمت الغطاء حول جسدها، تمسكت بكتفه. قال: اقترب مني، ولاح لي خيال سيد جارالله كما وصفوه. كان مربوع القامة، مستدير الوجه، عريض الكتفين. لست متأكدا تماما، ربما خيل إليّ أنه هو. كنت خائفا. سألته فلم يجب، وراح ينظر إلي نظرة معاتبة لا تخلو من لوم. ثم ترجل، قدم لي جواده، وقال بحزم: "هذا سيعينك على الوصول". ثم اختفى في البرية الواسعة.

سرت في جسدها رعشة فجّرت أملا مبهجا، بسملت وهي تتقدم في جلستها لتضاعف نور الفانوس فانتشر الشعاع على الجدران الطينية ليتكسر وينشطر إلى عشرات الأشكال المتعرجة المبهمة، غير أنه كان كافيا لإضاءة صورة لشهداء واقعة كربلاء ثبتت بعجين، وأخرى كبيرة مزججة مؤطرة بشريط لاصق لأحد الأئمة الاثني عشر. تنقلت عيناها بين الصورتين وشهقت بفرح: "سيأتيني ولد"، وظلت ساهرة حتى الفجر تفكر وتتأمل وتحلم.

في الصباح خلعت ملابس الحداد وارتدت ثيابا ملونة وفوطة جديدة شبه شفافة. زينت أذنيها باقراطها الذهبية التي خبأتها، عندما توفي ابنها الثالث، في صندوق خشبي ذي مسامير برؤوس مفضضة. ولم تنتظر خروج جاراتها، إنما راحت تدق ابوابهن واحدا واحدا لتخبرهن بتلك الرؤيا، رؤيا الفارس وحصانه الوسيم. ضحكت حتى ترقرقت عيناها بالدموع، ثم اتجهت نحو السوق محترسة من الأولاد الذين أخذوا يرمون

الأحجار على الأسطح الجليدية الصلبة التي تشكلت فوق البرك والبقع المائية أثناء الليل.

ذلك الصباح نذرت مكية الحسن أمام جاراتها قائلة إنها إذا أنجبت ولدا ينجو من الموت فستضع في مرقد سيد جارالله دينارا من أول مرتب يتقاضاه في حياته، وقالت إنها ستظل تجتاز به ميدان تمثيل واقعة كربلاء في العاشر من محرم من كل عام حتى يحين اليوم الذي يظهر له فيه شاربان.

كانت تحاول أن تنسى دائما. إنها تصف النسيان بأنه فضيلة إلهية لولاه لهلك بشر كثيرون من الآلام التي تسببها الامراض والحرائق والفيضانات. هي نفسها كان يمكن أن تجن من آلامها ولهفتها لإنجاب ولد ينجو من الموت.

كان بكرها بنتا أسمتها حليمة. ومع أنها كانت تتوق إلى ولد إلا أنها رعتها رعاية كافية، بعدها أنجبت ثلاثة أطفال ماتوا الواحد تلو الاخر. تعّرض الأول إلى مرض غريب لم تنقذه الأدوية التي كانت تصنعها بنفسها من الأعشاب وعظام القنافذ، ولا التعاويذ التي كتبها عرّافون جوّالون كانوا يجتازون البلدة من حين لاخر. هكذا ظل الطفل يشحب وينحل شيئا فشيئا حتى جاء يوم تخشب فيه جسده ومات. فحمله الرجال في بطانية دفنوها معه خارج البلدة فوق مرتفع أجرد يطلقون عليه إسم "اليشان".

وتوفي الطفل الثاني بمرض الملاريا. يومها أصرت على أن تذهب مع الرجال إلى المقبرة. وحين إنتهوا من دفنه رفضت العودة. جلسوا معها طويلا حتى أقنعوها بأن الله إصطفاه إلى جواره ، هناك، حيث يظهر له

جناحان يحلق بهما بين أشجار الجنة. ومع ذلك إرتدت ملابس الحداد وانصرفت إلى الصمت والدعاء والصلاة. لكنها سرعان ما أخذت تذهب إلى "اليشان" كل يوم، تجلس هناك عدة ساعات أمام القبر وتحدثه، وقبل حلول الظلام تعود وعيناها غائرتان حمراوان فتشفق عليها النسوة في الجوار، يقدنها من يدها ويدخلنها البيت ويبكين معها حتى هبوط الليل.

شهور مضت حاولت خلالها أن تنسى متفائلة بنمو حليمة وبعمرها الذي راح يشرق مبكرا حتى ولدت ابنها الثالث. لم يكن يشبه إخوته في سمرتهم وسواد عيونهم، يومها رقص زوجها سلمان اليونس بفرح، وضرب الأرض بقدميه. وفي المساء ذبح ديكا، ومن دمه بلل كف الوليد.

ذلك العام شاهد الناس آلة مسح تنتصب فوق سدة ناظم باشا عند الخاصرة الشرقية لبغداد، يقف خلفها رجل يرتدي قبعة وبنطالا قصيرا وينظر إلى البلدة عبر عدسة الآلة. إلى جواره رجل آخر يحمل علما صغيرا أحمر ويعلق منظارا في عنقه. توجس الأهالي وخافوا من إرتحال جديد، وتذكروا وقائع الرحلة التي قام بها أسلافهم المكتشفون الأوائل والتي اضافوا اليها الكثير من الأخيلة والمبالغات عاما بعد عام.

* * *

في ذلك الصيف البعيد وصلت المجموعة الأولى من المهاجرين الذين تركوا أرياف الجنوب وأهواره وقدموا إلى المدينة حالمين بحياة جديدة بعد أن قطعوا مسافات طويلة في عربات خشبية مفتوحة الجانبين، لها سقوف من شعر الماعز، تجرها خيول أرهقتها الدروب الوعرة والمستنقعات الجافة المتشققة. كانت وجوه الرجال مغبرة، ملفعة بكوفيات تنحدر منها جدائل مرصعة بالعفص والخضرم والودع، ولها نهايات تيبست من العرق

والغبار. على ذقونهم نمت لحى كثة علقت فيها أنصال التبن وأعواد القش. كانت أجسادهم نحيلة وملابسهم ملوثة بالتراب.

وجاء يوم اتضحت لهم منائر بغداد وقبابها من بعيد متوجة بأشعة نحاسية فهتفوا مبتهجين. تلك اللحظة توقف سيد جارالله، ترجل عن حصانه وطلب منهم أن يمضوا ليلتهم تحت شجرة توت ضخمة انتصبت وحيدة على جانب الطريق. أنزلوا أمتعتهم وأراحوا الخيول المنهكة، ثم استلقوا على الأرض يفكرون باقتراب نهاية الرحلة الطويلة المضنية، وسرعان ما استغرقوا في النوم.

في الفجر نهض سيد جارالله، اعتلى حصانه وغادر من دون أن يثير أي ضجيج. وحين عاد وجدهم مازالوا نائمين وقد غمرتهم الشمس بحرارة لاهبة. أيقظهم. أرخى كوفيته السوداء، تنفس عميقا وقال بنبرة واثقة إنه وجد لهم بقعة مباركة سيعيشون عليها هم وأحفادهم جيلا بعد جيل.

بنشاط مفاجئ استأنفوا رحلتهم يتقدمهم سيد جارالله ليرشدهم إلى الممرات السالكة في أرض منخفضة متفاديا مياه البرك التي خلفتها فيضانات الاعوام الماضية. قطعوا مسافة في عمق أرض بكر نزة متموجة غطت أجزاء منها أحراشٌ ونباتاتٌ برية عالية متوحشة تختبئ فيها القنافذ والسحالي والعضايات. وفي أماكن متباعدة ثمة أشجار سدر ويوكالبتوس ونخيل.

كانت الأرض تمتد بين سدتين ترابيتين لحماية بغداد من فيضانات النهر السنوية. في أسفل السدة الأولى، سدة ناظم باشا، الممتدة من الرستمية جنوبا إلى الصليخ شمالا يجري جدول آسن يطلق عليه إسم "شطيّط". هناك توقف حصان سيد جارالله فهبط منه. طاف بصره متأملا

الأرض التي لم تطأها قدم من قبل، ابتسم قلبه للسماء ودعاهم للصلاة، فيما انتشر الأطفال بعيدا في البرية الموحشة. حين انتهوا من صلاتهم نهض معتمدا على يديه، وقال بصوت مجهد شعر به الجميع:

- "هنا بيتي، وهنا قبري".

أدركوا أنه اختار تلك البقعة ليقيموا فيها، فأخرجوا الفؤوس والمعاول والمعازق. نظفوا مساحة مستديرة من الأدغال والأجمات الكثيفة المبعثرة. أوقدوا نارا لطرد الهوام والحشرات والزواحف، فيما أعدت النسوة أفرشة لأطفالهن. وعلى مبعدة من النيران التي وزعوها في الأماكن المحيطة بهم جلسوا يتناولون عشاءهم متعبين.

وهو يحتسي الشاي أخرج سيد جارالله كيس تبغه ولف سيكارة بيد مرتعشة. أحس بإعياء شديد، وبخدر في ساقيه. أسرعت امرأة تهيئ له الفراش فرفض قائلا إنه يفضل النوم على الأرض، سرير الأجساد المنهكة.

في الفجر أفاقوا على رائحة عطرة تنتشر حولهم. في البداية اعتقدوا أنها رائحة أعشاب برية، وشيئا فشيئا تيقنوا أنها كانت تنبعث من جسده الممدد بسكون. أطلقت النسوة صراخا مباغتا تبدد في فضاء الأرض الفسيحة. انتحب الرجال، ودخنوا كثيرا يساورهم شعور بأنهم تركوا وحيدين يواجهون مصائر مجهولة في أرض غريبة.

بعد شروق الشمس دفنوه في الموقع الذي نام فيه، غير أن الرائحة العطرة لم تختف، إنما ظلت تصلهم وتطوف حولهم متدفقة من القبر الذي تحول في ما بعد إلى مزار، ومن ثم إلى أسطورة خشيت منها السلطات الحكومية في الساعات الأخيرة من حياة البلدة التي اندثرت، في ما بعد، مرة وإلى الأبد.

بطيئة، موحشة مضت الشهور التالية.

في الأيام الأولى عثر عليهم سقاء متجول أخذ يزودهم بمياه الشرب التي يجلبها على ظهر حمار، من سقاية على نهر دجلة، في قرب صنعت من جلد الجاموس المدبوغ. ولأعمال البناء حفروا آبارا قريبة تدفق منها الماء بسهولة. بعد ذلك شيدوا مرقدا لفقيدهم. سيجوا المكان بجدار واطئ، وبنوا كوخا طوليا في الوسط، في داخله دكة مستديرة فوق القبر تماما، تركوها حتى تجف، ثم وضعوا عليها كوفيته السوداء، وأخذوا يزورونه من حين إلى حين.

من القصب وسعف النخيل بنوا اكواخا متلاصقة بغير إنتظام بدت في تقاربها الحميمي وتراصها الأليف كما لو أنها تحتمي ببعضها ضد هجوم غزاة غرباء أو ثعالب متوحشة أو قطط برية. وإذ فكروا بترك عادة قضاء حاجاتهم في العراء بنوا في زوايا البيوت مراحيض مدورة، طوقوها بالحصران، وأسندوها بحزم القصب العمودية المثبتة، وفرشوا أرضيتها برماد المواقد.

كانوا وهم يحفرون أساس البيت ينتبهون أحيانا إلى أهمية الممرات فيتركون مترا أو مترين لتصبح عند إكتمال البيوت أزقة ضيقة ملتوية متداخلة. وبمرور السنوات وتزايد أعداد المهاجرين تكونت شبكة معقدة من الطرقات التي لا ترى من الأعلى والتي يتيه فيها القادم إلى البلدة لأول مرة. حتى سكنتها أنفسهم ما كانوا ليهتدوا اليها بيسر.

هكذا استمر بناء البيوت بالطريقة ذاتها وبالتجاور ذاته إلى الحد الذي كان بمقدور أي بيت أن يشم رائحة البيت الآخر، وأن يسمع شكواه وآلامه، قبلاته وهمسه، صراخه وسكونه، ضحكه وشتائمه، دعاءه وتوسلاته.

وسنة إثر سنة، وجيلا إثر جيل، ازدحمت البلدة بالمهاجرين الذين استمروا يتوافدون بدون إنقطاع بعد سماع أخبار من سبقوهم، من الذين حصلوا على فرص عمل مختلفة في المدينة أو في معامل الطابوق التي انتصبتَ إلى الشرق منهم في العمق البري المفتوح المتصل بالأفق. هكذا انحشرت البلدة في المنخفض حتى احتلت كل الشريط الأرضي بين السدتين الترابيتين. ثمة بقعة واحدة ظلت مرتفعة حتى بعد أن زحفت اليها البيوت من المنخفض. هناك شيّد رجل يدعى نصر الله بيتا كبيرا تتوسطه شجرة سدر لجأت اليها الطيور والعصافير وأصبحت مأوى دائما لها. كانت الشجرة سامقة كفنار، تخترق الفضاء فتتصل بالغيوم، أو تلامس الكواكب المحيطة بها فتومض من بعيد في الليالي الصافية. كان المنخفض، الذي تحول إلى مستنقع بسبب مياه الأمطار، يحجز طريق المرور أمام سكان التلة لكنهم صنعوا دروبهم الخاصة التي تقودهم إلى السوق في الأسفل، فيما ظل سكان المنخفض ينظرون إلى تلك البقعة على أنها نائية ومعزولة، وصعبة الوصول، خاصة الأولاد الذين كانوا يتوقون إلى الوصول إلى الشجرة لاصطياد العصافير التي تزدحم على أغصانها.

غدت البلدة حارات متجاورة غير منفصلة بأسوار أو أسيجة أو حدود. إنها منفصلة بأسماء فقط لم تكن سوى اتجاهات. كل حارة هي اتجاه، أو إشارة، أو علامة، تأخذ اسم عشيرة أو فخذ: كنانة، الخزاعل، بني عكبة، الحلاف، السواعد، بني لام، الوحيلات، البيضان، الكورجة، بيت زامل، الفراطسة، عبوده، بني كعب، النصيرات، السودان، البهادل، البومحمد، آل ازيرج. وكانت بعض هذه الحارات تقيم مواكب دينية في

شهر محرم من كل عام تسمى باسمائها: "موكب عزاء الوحيلات"، أو "موكب عزاء السواعد".

أطلق على البلدة اسم "العاصمة". لا أحد يعرف بالضبط لماذا سميت بهذا الاسم، ربما لأنها كانت تتكئ على كتف العاصمة بغداد التي هي بدورها أطلقت عليها اسما خاصا: "سكان الصرائف"(*). فيما أطلق عليها موظفو الدوائر الرسمية اسم "خلف السدة".

كانت تتصل ببغداد من ثلاث جهات رئيسية: جهة باب الشيخ، جهة ساحة الطيران، وجهة القصر الابيض. أما وسائل الإتصال فكانت قناطر عريضة أو ضيقة، قصيرة أو طويلة، تبعا للمواقع التي يتسع فيها الجدول أو يضيق. وذات يوم وقف فوق سدة ناظم باشا من جهة ساحة الطيران قائد وطني معروف، أعدم في ما بعد، أبصر البلدة بعينين حالمتين وهتف بألم: "يا إلهي كم هي أليفة، إنها تبدو كبيت واحد".

* * *

بعد أيام من مجيئ المسّاحين وصلت شاحنة تابعة لبلدية المدينة برفقة مفرزة شرطة. هبط منها موظف يرتدي بدلة زرقاء. كمم أنفه بمنديل أبيض وهو يتطلع إلى مياه البرك والمستنقعات المخضرة الآسنة. أمر العمال بوضع علامة باللون الأحمر على البيوت المرشحة للهدم. وعلى الفور باشروا أداء مهمتهم برفقة رجال الشرطة الذين بدوا متأهبين لأي احتجاج، يتبعهم حشد من الأطفال أينما ذهبوا، بل ساعد الكبار منهم

---

* – الصريفة: كلمة عامية تعني السقيفة، وجمعها صرايف. وتبنى عادة من السعف والقصب. وفي لسان العرب: الصريفة هي السعفة اليابسة وتجمع على صرف وصراف.

في حمل غالونات الطلاء من بيت إلى بيت. وبعد أربعة أيام أنهوا عملهم وغادروا وسط هتافات الأولاد وأهازيجهم وغضب أصحاب البيوت المرشحة للهدم إذ أصبح لزاما عليهم أن يجدوا قطعة أرض جديدة لم يعد الحصول عليها أمرا يسيرا بسبب الكثافة البشرية.

خلال فترة قصيرة شقت الجرافات والبلدوزرات شارعا طوليا يوازي السوق الكبيرة، ثم شارعا آخر يتقاطع مع الأول فاتخذ الشارعان هيئة الصليب، ووعدت الجهات المختصة برصفهما بالحصى وتعبيدهما بالإسفلت لكنها لم تنفذ وعدها حتى اليوم الذي أزيلت فيه البلدة من الوجود وغدت طيفا بعيدا موجعا، وذكرى حزينة غالبا ما تتأملها مكية الحسن وتستعيدها أثناء شيخوختها وعزلتها.

كانت الطرقات الجديدة واسعة مكنتهم من التجول في حارات لم يروها من قبل، ومن تسيير مواكبهم الدينية بسهولة. ومنحتهم فرصة أكبر لمطاردة اللصوص الذين كانوا يختفون في انعطافات الأزقة الضيقة وعتمتها، ويسّرت طرقا أخرى إلى مرقد سيد جار الله الذي أصبح وسط كتلة من البيوت المزدحمة يؤدي اليه زقاق ينتهي بباب كبير مفتوح دائما. على جانبيه رسوم أكف من صبغة الحناء يفضي إلى فسحة ظليلة بنيت في طرفها البعيد دورة مياه وحوض وضوء يأتيه الماء من برميل إلى جانبه كوز ملفوف بقماشة سوداء كتبت عليها عبارة: "وسقاهم ربهم شرابا طهورا". داخل الكوخ كللت الدكة المستديرة بقماش أخضر ارتمت عليه كوفية ذبل لونها الأسود. وحول الدكة فرشت حصر كثيرة غطت الأرضية الترابية التي احتلت زواياها الأربع صناديق امتلأت بمصاحف مختلفة الأحجام. وفي كوى ضيقة مغلقة وضعت مسبحات وترب للصلاة.

تذهب النسوة اليه فرادى أو في مجاميع، يحملن أطفالهن على أذرعهن، أو يقدنهم من أيديهم. على جانبي الباب يضعن قسما من الحناء وبالقسم الآخر يخضبن راحات الأطفال. يوقدن شموعا ويجلسن طويلا إلى جوار القبر الذي خبت رائحته العطرة مع مرور السنين، وغدت حكاية تروى عن الماضي البعيد.

* * *

في الشارع الجديد جلست مكية الحسن امام بيتها الذي لم يتعرض إلى هدم بل أصبح يطل على الشارع مباشرة بدلا من إطلالته على زقاق. كان الوقت عصرا، وفي حضنها ابنها الثالث الذي بلغ عامه الأول. كان أبيض البشرة وعيناه عسليتين. بدت مسرورة وهي تطعمه، بملعقة شاي، سائلا بنيا استخرجته من عظام القنافذ. عند الغروب قدمت غجرية عجوز تركّب اسنانا من ذهب. حيّتها وجلست لتستريح من عناء النهار. روت لها الغجرية أطيافا ترفل بالأمل، وأخرى قاتمة مظلمة. وقبل أن تنهض نظرت إلى الطفل الهزيل بأسى وقالت لها إنها إذا أرادت له الحياة عليها أن تشرب بوله.

لملمت مكية الحسن أذيال عباءتها بقلق. هرعت إلى بيتها وأمرت ابنتها حليمة أن تجلب طاسة فارغة. وضعتها بين فخذي الطفل النحيفين. وراقبته بحذر حتى إذا تدفقت قطرات فضية لامعة وتجمعت في قعر الطاسة الصفراء الداكنة خطفتها وشربتها حتى آخر قطرة أمام ابنتها التي راحت تضحك هازئة.

لكن الطفل مات بعد أسابيع.

أطلقت صرخة عالية فزع لها الجيران، لطمت خديها وصدرها وشقت

زيقها. ثم وهي تزيح فوطتها لتدفن شعرها بالتراب خلعت قرطها بأصابعها المتوترة فخرمت أذنها وسال الدم إلى عنقها. ارتبك سلمان اليونس. أمسكها من ذراعيها، وإذ لم يتمكن من تهدئتها احتضنها وراح ينتحب معها. احتشدت النسوة حولها يقبلنها ويبكين. وحين رأت الرجال يحملون الطفل في إزار ويتجهون به إلى "اليشان" مرغت جسدها بالوحل بينما راح زوجها يتساءل مرتجفا مذهولا: "ما الذي فعلناه؟ أكان يجب الا نأتي إلى هنا؟ قيل لنا إنها أرض مباركة".

مخفيا حزنه العميق أخذها سلمان اليونس إلى الأضرحة المقدسة علها تصحو من صدمتها وتنام هناك. كانت تلك نصيحة رجل مسن إذ أنها أمضت أياما من دون نوم. كانت ترى شبح الموت بهيئة رجل دميم متوحش يحدق فيها بثبات بعينين مجوفتين مظلمتين. ولم تنقطع عنها تلك الرؤيا حتى بعد عودتها من الأضرحة، إذ ظل شبح الموت واقفا في مكانه كل ليلة، ولم يختف الا عندما هطلت على البلاد أمطار غزيرة استمرت عدة أيام، وقتها قالت بصوت كسير: "لقد أغرقته المياه".

من عمله في معامل الطابوق كان سلمان اليونس يتقاضى أجرا زهيدا. فكر أكثر من مرة بترك تلك المهنة، لكنه لا يحسن أداء غيرها. إنها من المهن التي تحتاج إلى جهد أكثر من حاجتها إلى المهارة. جرّب أعمالا يدوية وفشل. جرّب بيع الفاكهة في سوق البلدة وفشل ايضا.

كان العمل في معامل الطابوق شاقا ومرهقا إلى الحد الذي يفنى معه الجسد سنة بعد سنة، ويتضاءل شيئا فشيئا حتى يتحول إلى تراب. كان دائما يقول بحزن: "نحن تراب المعامل". لذلك كان سلمان اليونس،

مثل كل أقرانه، يأمل من زوجته ولدا يعينه خلال السنوات الصعبة القادمة، سنوات عجزه وشيخوخته.

بعد شهور، وفي ظهيرة يوم جمعة عاد سلمان اليونس من سوق لبيع الاغنام ومعه خروف لم يتمكن من السيطرة عليه فاستعان بالأولاد الذين انصرفوا لمداعبته فيما حمل أحدهم حزمة من الحلفاء لإطعامه. قرب التنور، في زاوية من باحة الدار، دق وتدا في الأرض. ربط الخروف اليه بحبل سميك، وأمر ابنته حليمة أن تقدم له خبزا يابسا ونخالة وماء. وعندما سألته مكية الحسن الحبلى، وهي تجلس بحذر مستندة إلى الجدار الطيني الواطئ، أجاب قائلا: "إنه قربان للرجل الذي زارني في المنام".

* * *

حانت ساعة الطلق.

تلك الليلة لم يذهب إلى عمله ولا الليالي التي تلتها. مرتبكا أوقد الفانوس. أيقظ حليمة من نومها، وأخبر الجارات، اللاتي كن متلهفات لتلك اللحظة المنتظرة، فدخلن البيت على عجل. وطلبن منه أن يجلب القابلة بسرعة.

في طريق عودتهما كانت القابلة العجوز تدب في الظلام كساحرة طاعنة في السواد. بدت كما لو أنها تمشي هكذا منذ دهور، بطيئة باردة مستقرة، فيما يتوغل هو مسرعا في الأزقة المعتمة تسبقه أحلامه ومخاوفه. كان يضيء لها الطريق بمصباح يدوي أفزع شعاعه الكلاب النائمة التي ظلت تنبح حتى بعد أن ابتعدا عنها كثيرا. كان صوت نباحها يصله من خلف الجدران في الهواء الساكن.

بين الغرفة الطينية وباحة الحوش، ثم الغرفة الصغيرة الأخرى التي

خصصت للوقود، كانت الجارات يتنقلن بخفة لترتيب احتياجات الطفل القادم. خارج الدار أمام الباب الذي تركه مفتوحا جلس سلمان اليونس منتظرا الفجر كأن خيوط الضوء الأولى ستبدد عتمة روحه التي أخرسها الألم والإنتظار.

من هناك كان يصغي إلى أنين زوجته واستغاثاتها. كانت تستنجد بالأئمة والأولياء، بمراقدهم وأضرحتهم، بنسبهم ومعجزاتهم وهي تتطلع إلى صورهم المثبتة على الجدار وتتمسك بعمود وسطي بيدين مشدودتين متوترتين. وبصوت جريح مثلوم غائر أطلقت قلبها إلى فضاءات الرجاء اللامتناهية "علي، علي، علي".

كان النداء يستطيل ويمتد ليشمل عمرا بأكمله ثم يتحول إلى صوت، إلى همس، يأتي من تواريخ سحيقة، من أزمنة الخوف والعزلة. استمرت في رجاء طويل حتى تعبت وخارت قواها فتركت العمود واتكأت على كتف القابلة العجوز. اعتصرت يديها بقوة دونما وعي متوسلة باكية. أعادتها القابلة إلى العمود وساعدتها على التشبث به وزجرتها قائلة: "رددي اسمه". فانطلق الصوت من جديد متدفقا إلى أعلى، منهمرا مدويا في جوانب البيت، ثم تكثف في كلمة واحدة تتوسل أمنية أخيرة من نفس مظلومة عزلاء.

في الخارج كان سلمان اليونس يسمع دعاءات النسوة وابتهالاتهن، ويتضور ألما حين تصله دفقات الطلق العسير الذي ينهض من احشاء زوجته فينشج بهمس متكسر، ويمسح دموعه بأصابع يابسة متوثبة. يتضرع في لحظة سكون، هي لحظة استرخاء جسد الأم بين أيدي الملائكة التي تسندها بالضوء عندما تتأهب لإطلاق جنين.

انتبه للخروف الذي تمكن من تحرير ظلفه. نهض وأعاد ربطه بالحبل بقوة. تلك اللحظة تناهت اليه صيحة تفجرت من زوجته بحشرجة جافة ثم صيحة أخرى مديدة واسعة حادة أوصلتها القابلة إلى منتهاها حين هتفت بكل قوتها وإيمانها: "يا مولاي"، ولوحت بيدها وأردفت "أطلقي، أريده الآن، تمسكي بالعمود واطلقي".

استجابت مكية الحسن مأخوذة بالألم والرغبة فصرخت بقوة، ثم صرخة ثانية وثالثة ورابعة، صرخة أخرى هي كل الصراخ دفعة واحدة حتى تفجر الجسد إلى شظايا مستسلما لقوة الانفجار الدفين ليهبط الطفل بدمه وضوئه ومياهه وبكائه.

انشغلت النسوة برعاية الطفل وبالأم المغمضة العينين، الشاحبة الوجه المنهكة القوى. تسللت القابلة بأقدام ثقيلة خارج الغرفة. زغردت بصوت متعب، فابتسم سلمان اليونس ودخل الدار مضاء بأشعة الشمس الأولى.

في الخارج كان يمكن سماع إيقاعات يرسلها سوادي حميد متبوعة بترديدات الأولاد التي ترتفع وتصبح أكثر وضوحا كلما اقتربوا من بيت سلمان اليونس. كان سوادي يرتدي دشداشة بيضاء شدّ عليها نطاقا التصقت به سكين مغمدة. حين اقترب من سلمان اليونس أنزل الطبل من كتفه وركنه إلى الجدار. احتضن سلمان اليونس وقبّله وأخذ يغني بصوت مديد مكلوم فوق سحاباته أنين قصب وهمس أمواج وجروح شجر.

"عالولف ساهر دوم

حارمني لذيذ النوم

وينه اليفك مظلوم

وين الله وينه"

أصغت النسوة اليه بإشفاق. شعرن كما لو أنه كان يغني لزوجته التي لم يرها منذ اليوم الذي سقط فيه مخضبا بدمه.

كان يتيما أسود البشرة تربى في منازل شيوخ الجنوب. وذات يوم قرر القدوم إلى البلدة. ترك وراءه فتاة بيضاء أحبها منذ طفولته. أقام في كوخ يطل على فسحة في زاويتها اليمنى برج حمام. وكان في كل مرة يتحدث عن فتاته خاصة بعد مشاركته في الزيارات الجماعية إلى الأضرحة المقدسة. هكذا ظل يلتقيها كل عام حين تأتي بصحبة أمها فتمضي ساعات معه خلسة. في آخر لقاء روت له تفاصيل عن أخوتها وبلدتها، عن المهاجرين والمقيمين، عن الموتى والأحياء. أمضيا أوقاتا طويلة، تناولا طعامهما معا مرات عدة وهما يرويان وقائع وتواريخ وأمكنة، ولم يخبرها برغبته في الزواج منها لأنه كان يدرك أن أهلها سيرفضون طلبه بسبب لونه الا عندما أبلغته بأن إخوتها يريدون تزويجها من شخص غريب. ساعتها اقترح عليها الزواج سرا. لم يصدقه أحد عندما روى قصته لأول مرة بعد سنوات. قال إنها كانت خائفة مضطربة وهي تنتظره في المكان الذي اتفقا عليه، فحمل صرة ملابسها وجاء بها إلى البلدة منتصرا مسرورا.

حين اكتشف أخوتها غيابها صمموا على العثور عليها. بحثوا عنها في المدن والقرى والبساتين. سألوا عنها في كل مكان ذهبوا اليه حتى اهتدوا إلى بيتها. لا أحد يعرف كيف وصلوا إلى بيتها، ولا أحد يعرف أي حب تملكها ودفعها إلى تلك المغامرة. ففي وقت القيلولة وصل ثلاثة رجال ملثمين في سيارة حمل صغيرة من نوع "بك آب". تسلقوا سياج البيت الطيني ونزلوا إلى باحة الحوش. تسلل أحدهم إلى الكوخ

وسحب الفتاة النائمة من ضفائرها. صرخت بفزع فأفاق سوادي حميد وهم بإستلال بلطته التي غالبا ما يخفيها تحت الوسادة فعاجله أحدهم بضربة خنجر، وامام الزوجة المرتعبة تناولوا جسده بالسكاكين.

سمع الجيران صراخ الفتاة وزعيق الأخوة الهائجين فهرعوا ناحية البيت. ذعر الحمام أمام البرج، وانطلق مرفرفا بأجنحة مرتعشة خائفة وحط فوق الكوخ فيما حوم سرب متوتر في السماء الزرقاء.

وقبل أن يتمكن الجيران من الوصول كانت السيارة تبتعد بالفتاة تاركة سوادي حميد خلفها ينزف دما بغزارة. حملوه إلى مستشفى يطلق عليه "المجيدية". قيل في ما بعد أن حياته أنقذت بمعجزة إذ أن طبيبا هنديا زرع في رأسه مخ كلب بدلا من مخه الذي اندلق بضربة بلطة حادة وانتشر على الأرض. لذلك لم يكن اهالي البلدة يكترثون بالأخبار التي ينقلها من أسواق بغداد ومحالها التجارية بسبب شكوكهم بسلامة عقله، ولم يصدق بعضهم حكاية الحب والمغامرة. لكنهم كثيرا ما يتعاطفون مع أحزانه عندما يرقص أو يغني أو يمرح في المناسبات.

خرج من المستشفى مذهولا من الصدمة، بعشرات الجروح، وبأسنان تهدم نصفها. لم يعرف بالضبط ما حدث لزوجته سوى أنباء متضاربة مرة عن مقتلها ومرة عن هجرتها مع أخوتها إلى الكويت، الا أنه ظل ينتظرها متوحدا يعاني من آلام في روحه وجسده. ومنذ ذلك الحين أخذ يحمل معه بلطة في الليل والنهار إذ تلبسه وهم مجيئهم ثانية، ونذر دمه أثناء الاحتفال الطقسي في شهر محرم من كل عام إحتماء بدماء الحسين بن علي التي سالت في واقعة كربلاء.

تدفق الأطفال محتشدين في الباب فأغلقوه بأجسادهم الصغيرة،

واندفعوا نحو باحة الدار. كانت ملابسهم بالية ملوثة بطين جاف، وشعورهم حليقة، وأخرى طويلة مترية. غنوا على إيقاعات سوادي حميد، صفقوا ورقصوا وشكلوا حلقة هبطت حليمة إلى وسطها. زغردت ورقصت برشاقة أدهشت أباها الذي فكر بأن عليها أن ترتدي عباءة بعد الآن. طلب منها أن تكف عن الرقص وتعود إلى أمها فانسحبت بإستياء خفي.

أضرمت امرأة نارا بين ثلاثة أحجار. وضعت فوقها إناء معدنيا بهيئة ترس وتركته حتى يسخن. أخذت تطعم النار ألواحا خشبية من صندوق فاكهة فارغ هشمه الأولاد.

أعدت خبزا من طحين الرز. قطعته ساخنا وأنقعته بالدبس والسمن. قدمته في إجانة نحاسية كبيرة أمام الأم الوليدة. تناولت مكية الحسن كمية قليلة دون شهية، فاقتطعت المرأة قسما منه إلى الأولاد المتلهفين لرؤية ذبح الخروف الذي طرحه سوادي حميد على الأرض وثبت قدما فوق فخذه والثانية فوق عنقه. عض سوادي حميد على لسانه وسحب سكينه من غمدها فلمعت في ضوء الصباح الساطع. بسمل وهو يقربها من العنق الذي أحس بأن عليه أن يقاوم، غير أن الدم تدفق وسط هتافات النسوة وتكبيرهن. أغمض الخروف عينيه ثم فتحهما فجأة. أخذ دمه يشخب ويسيل على التراب أحمر قانيا. حرك فخذيه متحررا من قدم سوادي حميد الضاغطة. ارتفع الفخذان ثم هبطا. كان الأولاد يصفقون ويتزاحمون حول الذبيحة غير عابئين بتهديدات النسوة وغضب سوادي حميد. في هذه اللحظة أخرجت المرأة إجانة النحاس فهرعوا اليها. وضعتها على الأرض فتسابقت اليها أيديهم المتسخة اللزجة. وخلال ثوان

أمرغوها تماما وعادوا لرؤية الذبيحة وهم يلعقون أصابعهم التي يقطر منها السمن.

غسلت النسوة الأواني بالماء والرماد مسرورات بالرذاذ البارد المتساقط على أقدامهن وسواعدهن. يبللن وجوههن المحمرة وينشدن أغاني باصوات خجولة تتحول إلى همس عندما يرمقهن سوادي حميد بعينين خبيثتين وابتسامة ماكرة. كن ينشدن لبهجة الأمنية، للطفل المستلقي في طبق من خوص، المغطى بقطعة "ململ" بيضاء رقيقة ترفعها إلى أعلى سكين مطبخ ثبتت بشكل عمودي من جهة رأسه، وعند قدميه وضع صحن خزفي فيه بيضة ومسمار وماء. طقس أيام النفاس الأولى لطرد الأرواح الشريرة.

تباعا قدمت النسوة في الجوار للتهنئة. كن يزغردن لحظة وصولهن وينثرن الزبيب والحمص المقلي والملبس فيلتقطه الأولاد زاحفين تحت الاقدام حتى إذا تأكدوا من خلو الأرض تماما عادوا إلى الصخب والرقص والعبث والأهازيج. عند انتصاف النهار خرجت القابلة العجوز من الغرفة الطينية إلى ضوء النهار الغزير وهتفت بغضب: "اتركوا المرأة تنام". واخرجتهم وهي تلوح بيدها وتغلق الباب بعنف.

قررت مكية الحسن أن تسميه علي. ثقبت أذنه وعلقت تميمة على كتفه بدبوس، وظلت تحمله بين ذراعيها بإحتراس كما لو كان قطرة زئبق. في حبوه ثبتت هلالا فضيا فوق خصلة على جبينه وزينتها بالخرز الملون. طوقت خصره بخيط قطني ناعم يتدلى منه جرس ذهبي فوق عضوه الذي كثيرا ما كانت تقبله بافتخار أمام الرجال والنساء.

مرة قالت لها مرأة عابرة إنها إذا أرادت له الحياة عليها أن تأكل

قطعة من أذنه. وأمام دهشة سلمان اليونس وابنته حليمة اجتزأت الأم قطعة من أذن الصغير الطرية، وضعتها في لقمة خبز وأكلتها.

في يوم آخر وشمت له عند الخاصرة استجابة لنصيحة صائغ هجر البلدة بعد أن سرقت جميع مجوهراته، وقالت إنها ستعامله كبنت عله يعيش. لذلك عندما مشى لأول مرة تركت شعره ينمو وضفرته جدائل تشبه جدائل أجداده المكتشفين الأوائل.

كثيرا ما كانت تتركه يتجول في السوق بصحبتها ويعبث بالحلوى فتدفع أثمانها وهي تردد بلا إنقطاع: "أتركوه يفعل ما يشاء". ولم يكن سلمان اليونس يعارض ذلك، بل كان سعيدا بها، متعاطفا معها.

وبخلاف كل الأمهات اللاتي يخشين على أبنائهن من الخدمة العسكرية الإلزامية، وبخلاف كل الآباء الذين كانوا يخفضون أعمار أولادهم للسبب ذاته كانت مكية الحسن تنتظر اليوم الذي يصبح فيه علي جنديا فذلك يعني لها اجتياز مرحلة الموت المبكر الذي خطف أخوته واحدا إثر الآخر. كانت ترتعب من أي مرض في الصيف أو الشتاء. ومع أنها كثيرا ما كانت تحتاط لذلك الا أنها ظلت تخشى عليه وتتوجس دائما وتردد أنها ترى أجنحة على كتفيه. وحين بلغ السادسة من عمره قررت أن تختن له فأقامت حفلة كبيرة في الشارع أمام البيت أشبه بحفلة عرس أحيتها مغنيات غجريات إلى ما بعد منتصف الليل. وبعد شهور طويلة أهملت البنتين التوأمين اللتين أنجبتهما بعد سلسلة من آلام النزف والإجهاضات المتتالية.

الفصل الثاني

في صباح العاشر من محرم من ذلك العام أخذت مكية الحسن ابنها علي لرؤية وقائع تشبيه معركة كربلاء ولاجتياز الميدان وفاء للنذر الذي قطعته على نفسها. قبل أن تخرج أوصت حليمة أن تنتبه إلى أختيها التوأمين. وإذ توجه سلمان اليونس إلى المقهى لسماع رواية أبي مخنف لوقائع المعركة من المذياع، وانشغلت حليمة بترتيب البيت، تسللت مديحة إلى الخارج، فيما انصرفت صبيحة لالتقاط الأحجار خلسة.

كانت البنتان التوأمان آخر حمل لمكية الحسن أسمتهما صبيحة ومديحة. لكنها لم تهتم بهما كما اهتمت بابنها علي الا عندما اكتشفت عادتيهما اللتين كانتا وسيلة الغرباء للتمييز بينهما. كانت صبيحة تأكل الأحجار، ومديحة تنام بشكل مفاجئ في أي مكان تجلس فيه. حاولت أن تمنع صبيحة من أكل الأحجار بالقوة، ضربتها كثيرا بكل ما يقع تحت يدها فلم تفلح. جربت مرة أن تطعمها قطعة "خرّيط"[1] صفراء مخضرة عسى أن تتوهمها حجرا لكن الطفلة كانت تمسك القطعة بيد وتمد اليد الأخرى سرا إلى الأحجار. فاندهشت من قدرتها على التمييز بين الحجر و"الخرّيط". وفشلت أيضا في أن تعالج غفو مديحة المفاجئ رغم أنها

---

(١) ثمرة قصب البردي .

أعطتها كل أنواع الأدوية التي أعدتها من مزيج غريب من الأعشاب الطبية المستوردة من الهند والصين وسمرقند.

في الشوارع والساحات الضيقة والزوايا والأزقة أُوقِدت النيران منذ الفجر ورُصفت فوقها قدور نحاسية ضخمة لإعداد حساء الهريس[1] وتوزيعه على البيوت القريبة طلبا للثواب. دخلت مديحة السوق. كانت الدكاكين مغلقة، إذ أن أغلب سكان البلدة يخرجون في مثل هذا اليوم لمشاهدة تمثيل وقائع المعركة. تجولت بين السقائف تفتش عن أشياء منسية، وإذ لم تعثر على ما يناسبها التقطت تفاحة من الأرض وجلست تقضمها فوق مصطبة خشبية.

عند الضحى، وفيما كانت حليمة تعجن بيدين غير ماهرتين سمعت طرقا على الباب فنهضت لتفتحه وهي تجفف يديها بجانبي ثوبها. كان هناك شاب طويل يحمل مديحة على كتفه. أنزلها لاهثا وألقى تحية مرتبكة. قال إنه وجدها نائمة فوق مصطبة في السوق، وإن اسمه عبدالحسين، ويسكن في حارة مجاورة. رفعت بصرها اليه. قال كلمة مبهمة لم تفهمها، ولم تسأله عنها إلا أنها أحست بارتعاشة في عينيه السوداوين العميقتين. ظل واقفا يحدق فيها فقالت بخجل وهي تنظر إلى مديحة: "إنها تنام في كل مكان". تراجعت إلى الخلف، استدارت وهي تبتسم في سرها، ونسيت أن تغلق الباب.

قبل تطوعه في الجيش ترك عبدالحسين المدرسة وبقي عاطلا عن العمل، لكنه كان يتدبر بطريقة ما ثمن ربع عرق يحتسيه سرا. كان أهله يعرفون ذلك ويعيبون عليه بطالته وتسكعه في المقاهي والحارات. وكان

---

(١) حساء من اللحم والقمح .

يتابع حليمة من بعيد. يجلس في المقهى أو يتجول في السوق حالما برؤيتها، أو ينتظرها في الطريق إلى حنفية الماء دون أن تلحظه. ففي تلك الأيام بدأ عدد من البيوت لا يتجاوز العشرة ببيع مياه الشرب إلى سكان البلدة بعد وصوله اليهم في أنابيب معدنية مدفونة أو ظاهرة. وقد أصبحت بعض الحنفيات التي نصبت أمام البيوت معالم مميزة لقلتها وأهميتها. ظل عبد الحسين ينتظر فرصة مناسبة ليكلم حليمة حتى حانت اللحظة التي عثر فيها على مديحة نائمة فوق مصطبة الفواكه في السوق.

عند انتصاف النهار عادت مكية الحسن مع ابنها. كانت ماتزال مأخوذة بالأصداء البعيدة لإيقاعات الطبول والصنوج والأشعار المرتلة المنبعثة من مكبرات الصوت التي بدت كما لو أنها تأتي من كل مكان. كان سلمان اليونس جالسا، تحت السقيفة التي شيدها من السعف والقصب في أول الصيف، يحدّث حليمة عن إعجابه بترتيل عبد الزهرة الكعبي لمقتل الامام الحسين بن علي كما رواه أبو مخنف بينما هي ساهمة تحدق في نقطة ما في السماء الصافية. تناولوا حساء الهريس واستعدوا لقيلولة طويلة، فيما ظلت حليمة مستيقظة تفكر بارتعاشة عيني الفتى الذاهلتين وتحاول أن تدرك تلك الكلمة الغامضة التي قالها، لكنها سرعان ما شعرت بالذنب وتذكرت حكاية كلثوم التي قتلت على مشارف مدينة جنوبية بسبب شكوك أخوتها بأنها تعشق شخصا لم يتمكنوا من معرفته حتى لحظة موتها واندثار سرها. ففي عصر أحد الأيام جاء أخوتها إلى السوق. كان أحدهم يحمل حقيبة عمال بناء أخرج منها كفا مقطوعة وعرضها على المارة في إشارة إلى أنهم عثروا على

كلثوم وقتلوها غسلا للعار الذي لحقهم. بعد أيام سلموا انفسهم للقضاء.

وهي في استرخائها اللذيذ حاولت مكية الحسن أن تبصر المشهد الواسع من خلال الرؤوس المشرئبة المتطلعة مثلها إلى رؤية الميدان من زواياه الأربع. كانت تقبض بقوة على يد ابنها كي لا يضيع في الزحام. قالت وهي تلف عباءتها وتعض عليها بأسنانها من طرفيها القريبين إلى فمها كما اعتادت ان تفعل: "أمسكني من عباءتي". اندفعت بثقلها كله لتخترق السور البشري الذي احتشد قبل وصولها. ومن ثغرة ضيقة بين أجساد النسوة المتراصة نطت مثل سمكة لتنفذ إلى الصف الأمامي. من هناك أطلت على الميدان الواسع فتمكن علي من مشاهدة البيارق الكبيرة الملونة الخفاقة، والعمائم الخضر، والسيوف اللامعة، والرماح والأقواس والسهام. فرح لمرأى الخيول المزينة بأطواق فضية مرصعة بالأحجار المضلعة المتوهجة والسروج المزخرفة بأقواس وحلقات وسلاسل طليت بلون ذهبي. في طرف الميدان كان سوادي حميد يجلس على الأرض ورأسه ملفوف بشاش ابيض مبقع بالدم من آثار ضربات السيوف على الرأس المنذور. اندهش علي من جرأته وخشي أن تطلب منه أمه أن يفعل مثله. كانت تصغي إلى صليل السيوف ووقعها على الدروع والرماح وتنتظر مرور خيول الأمويين المغيرة كي تعثر على فسحة لاجتياز الميدان. وسمعها تقول: "أعطني يدك"، ثم هتفت: "الآن". وإنطلقت تجتاز الميدان وهو يحث خطاه إلى جانبها. إنها تعبر إلى الضفة الأخرى، عبور حذر دقيق يشبه عبور قنطرة خشبية شاهدتها مرة قبل ولادة علي. كانت أوت إلى فراشها مبكرا لاختبار خرزة وضعتها تحت

وسادتها لاكتشاف أثر السحر على حاملها. استلقت على الفراش تحدق في ضوء الفانوس الخافت المعلق على الجدار بمسمار فرأت رجلين يقتربان منها ويفتشان في سجل كبير يشبه المخطوطات القديمة، وإذ تأكدا من وجود اسمها استعدا لحملها. في هذه اللحظة ظهر رجل يرتدي عمامة سوداء احتل مساحة الباب. أومأ للرجلين أن ينتظرا. قالت إنه طلب منها أن تلتفت إلى الجهة الثانية من الغرفة فلم تشاهد الجدار إنما رأت قنطرة ضيقة فوق جدول عميق لمياهه زبد يغلي. قال لها: "أعبري". قالت بلسان ثقيل: "لا استطيع". قال: "سأساعدك". ومد لها يدا بيضاء. قالت إن يده كانت صلبة كمقبض سيف. وباحتراس وجل اجتازت القنطرة إلى الضفة الأخرى. في الصباح عندما استيقظت اندهشت من وجودها بين الأحياء، ووصفت الخرزة بأنها حميدة تحمل بشائر خير.

اقتربت من الضفة الأخرى للميدان وهي تهتف في أعماقها: "أسنده يا مولاي". واستمرت في سيرها لتجتاز السور البشري إلى البرية الواسعة الخالية الموحشة التي تشبه أرض الغاضرية كما تخيلتها من الحكايات والاقوال المنقولة. هناك جلست تسمع إيقاعات الطبول وخفق الرايات ورنين الشراريب النحاسية المتدلية من خوذ المحاربين. تنهدت بعمق والتفتت إلى السور البشري وخيل اليها أنهم جميعا مثلها، رجالا ونساء، جاءوا ليغمروا أجسادهم بضوء النذور الغزير كأنهم بذلك يخرجون لأول مرة إلى الشعاع المضيء، شعاع الإطمئنان والأمنيات الرحبة.

* * *

في مساء شتائي بارد جاءت والدة عبدالحسين لخطبة حليمة. شربت شايا مع مكية الحسن أعد على موقد. تحدثتا كثيرا عن البرد والفاقة

وحكايات قديمة عن سنوات الجفاف والقحط. وقبل أن تهم المرأة بالمغادرة قالت إن ابنها عبدالحسين افتتح محل ندافة يديره بعد نهاية دوامه في الجيش. وبعد لحظة صمت قالت مترددة إنها جاءت لتطلب يد حليمة. قلّبت مكية الحسن جمرات غطاها الرماد بملقط معدني، ولم تجب إنما اكتفت بالترحيب والوعد. بعد أن غادرت سألت حليمة أمَها عن سبب مجئ والدة عبدالحسين فأخبرتها بأنها جاءت لتخطبها لابنها ففرحت حليمة في سرها، إذ تخلصت من عبء يثقل جسدها الصغير. كانت تخشى من تهور عبدالحسين فربما أفلت لسانه كلمة عنها أمام أحد عندها يكون مصيرها كمصير كلثوم.

في ذلك المساء أضيء الشارعان الرئيسيان المتقاطعان في البلدة بمصابيح لأول مرة إذ أكملت السلطات الحكومية نصب أعمدة كهرباء متباعدة. وقف الجميع ينتظرون اللحظة التي ستضاء فيها المصابيح مرة واحدة، وأطلت النسوة والفتيات من الأبواب لمشاهدة النور الذي سينطلق من دون نفط أو دخان. وما أن شع الضوء حتى غمر الناس سحر غريب إذ شعروا أن شيئا جديدا طرأ على حياتهم. ومع أن المصابيح كانت قليلة وليست كافية لإنارة الطريق لكنها كانت مبعث دهشة الأولاد وفسحة للعب تحت أضوائها في الليالي المعتمة.

بعد شهر جاءت والدة عبدالحسين مرة أخرى. كان الوقت عصرا، وسلمان اليونس يقطّع ألواحا خشبية بمطرقة كبيرة وإسفين. استمع إلى حديثها عن عبدالحسين وإلى إعجابها بحليمة، وإذ صمتت بانتظار الجواب أشار سلمان اليونس اشارة عابرة إلى أن ابنها سكير فاعتبرت ذلك رفضا مهينا وقررت ألا تعود إلى الأبد.

علم عبدالحسين فتفجر غضبا وأقسم إنه لن يتزوج غير حليمة حتى لو أُهدر دمه، واعتقد أن أهله لا يريدون له الزواج منها فتناول صفيحة نفط وسكبها حول البيت مهددا بحرقه وهو يطلق السباب واللعنات. قدم الناس في الجوار متوسلين اليه ألا يفعل ذلك. وخرج والده من غرفته فزعا شاحب الوجه. كان شعر رأسه أشيب ولحيته بيضاء طويلة، ووعده أمام الجميع أن يبذل جهدا مع سلمان اليونس. عند ذاك رمى عبدالحسين الصفيحة من يده مرتعشا، وانسحب صامتا إلى دكان الندافة. بات ليلته هناك، وفي الصباح أفاق على صوت مطر غزير تسربت مياهه من السقف وتحت الباب.

سمع سلمان اليونس فارتعد جسده، وخرجت من زاوية فمه كلمة "فضيحة" مع الزبد واللعثمة. حاصر حليمة بصوت شرس وهي تتراجع محشورة بين جدار الطين وكن الدجاج وتحمي وجهها بيديها. حاولت مكية الحسن أن تبعدها عنه فضربها في كوعه عند الخاصرة فتراجعت تتلوى من الألم وهي تشتم وتهدد الاثنين معا. وإذ لم يتمكن سلمان اليونس من انتزاع أي اعتراف من ابنته عن صلتها بعبد الحسين بعد ضربها بوحشية تركها وهي تنحني إلى الأرض وتبكي، وأمر علي الا يتوقف أمام دكان عبدالحسين اثناء مروره في السوق. تلك الليلة نام الجميع مبكرين دون أن يحدّث أحدهم الآخر فيما ظلت حليمة تنشج في فراشها.

لم تمض أيام قلائل حتى توجه موكب مهيب إلى بيت سلمان اليونس يتقدمه والد عبدالحسين برفقة عدد من وجهاء البلدة وشيوخها. اختاروا وقت المساء، كي يشهد الناس الذين يجلسون أمام بيوتهم أن

وجهاء البلدة ذاهبون لخطبة حليمة بعد أن انتشر خبر محاولة عبد الحسين حرق بيت أهله من أجلها الأمر الذي فسرته النسوة على أن هناك علاقة حب بين الاثنين توجس منها سلمان اليونس طيلة الأيام الماضية. ذلك المساء وافق سلمان اليونس على الزواج الا أنه اشترط أن يكف عبدالحسين عن احتساء الخمر.

بعد خروجهم توقفوا في منتصف الطريق حتى تمر سيارة صغيرة تابعة للمؤسسات الصحية في المدينة. كانت السيارة تنفث دخانا أبيض كثيفا لقتل البعوض والحشرات.

* * *

عبق البيت بالعطور والألوان والثياب والحلي عندما قدمت فتيات الجوار، وامتلأ بهمس الأجساد التي كتمت رغباتها بانتظار ليلة الدخلة. أحطن بحليمة التي جلست امام مرآة مؤطرة. سرحن لها شعرها الطويل بمشط خشبي مبلل بالقرنفل والمسك، وزيّن أذنيها بأقراط ذهبية، وأنفها بخاتم فضي. كانت أجساد الفتيات تتمايل فينبعث معها رنين قلائد وإيقاعات دفوف متقطعة. وقبل المساء بقليل توافدت فتيات أخريات تتقدمهن والدة عبدالحسين يحملن سلالا امتلأت بالسكر والحلويات، فاهتزت الأصوات بالغناء والزغاريد. بدت حليمة أكبر من عمرها وقد أصبح حاجباها دقيقين، عيناها تشعان بموجات الكحل، وشفتاها حمراوان من صبغة "الديرم". كانت ترتدي ملابس بيضاء وعلى وجهها برقع شفاف، ساعتها لم يتمكن علي من إقناع نفسه بأن أخته ستغادر بيتهم إلى بيت آخر، وشعر بأنه سيفقد، وإلى الأبد، شيئا غاليا. خرجت الفتيات إلى الشارع واحتشدن أمام البيت. شكلن حلقة رقص، وفرشت

إحداهن عباءتها السوداء اللامعة في الهواء. ومن بين الحشد اندفعت والدة العريس بصعوبة وكسرت بيضة عند قدمي حليمة، وانتشر ضوء اللوكسات فوق الرؤوس المتطلعة إلى بعضها وإلى صفوف الشباب الذين كانوا يختلسون النظر إلى الفتيات ويكتمون دماءهم الساخنة وآمالهم بلقاء قريب، لقاء العيون المترددة الحذرة، ولقاء الأيدي الراعشة. سار الموكب بإتجاه بيت عبدالحسين، الذي اقتطعه من بيت أهله قرب مرقد سيد جارالله، يقوده سوادي حميد بضربات إيقاعية على الطبل تتناغم مع إيقاعات دفوف الفتيات. وعندما غاب الموكب في أول انعطافة له بعد أن قطع السوق انسحبت الشمس خلف البيوت وخلا الشارع تماما إلا من علي الذي ظل واقفا مستغرقا، قرب عمود الكهرباء المضاء، يحدق في مكان ما من الطريق.

عاد سلمان اليونس من المقهى فرأى ابنه يقبع في زاوية من الدار التي بدت ساكنة، ولم ينتبه إلى صبيحة التي كانت تلتهم فتات حجر. أوقد الفانوس فأضاء جانبا من الحوش المعتم. نهض علي متجها إلى الغرفة الطينية التي ماتزال تنتشر فيها عطور الفتيات. استلقى على الفراش فرأى مديحة نائمة فوق خزانة واطئة.

رأى علي نفسه بصحبة حليمة وهما في طريقهما إلى السوق في باب الشيخ. كانت أمهما أرسلتهما لشراء احتياجاتها من العطارين. قرب الجسر الحديد لم يعثرا على القنطرة التي يعرفانها جيدا من قبل إذ كانت مغمورة بمياه "شطيّط" التي فاضت وجاورت البيوت. قالت حليمة:

- "اتبعني".

فتردد وظل واقفا في مكانه. وصاحت وهي تنزل إلى الماء:

- "علي إتبعني لا يوجد طريق آخر".

قال مرتعشا:

- "أخاف من الماء. إنه عميق".

- "كلا ليس عميقا".

التفتت اليه وقالت: "انظر"، ثم تقدمت مسافة أمتار وهو مايزال واقفا في مكانه على حافة اليابسة لا يجرؤ على الخوض في الماء الطيني إنما يحدق في أخته التي وصل الماء إلى وسطها. فجأة ندت عنها آهة حين انزلقت قدمها نحو حفرة فهبطت بجسدها الطري إلى أسفل. وسمع علي صراخها وهو يدعو المارة إلى إنقاذها، واستيقظ مذعورا.

كان والده وأختاه نائمين فلم يشأ أن يوقظ أحدا. لكنه إضطر إلى ذلك عندما عاودته رؤيا الوجوه المخيفة التي كان يراها في الظلام. هدأه والده وطمأنه إلى أنه لم يعد صغيرا فلا ينبغي له أن يخاف في الظلام، وأضاء الفانوس فتبددت العتمة واختفت معها الوجوه القبيحة الشرسة.

* * *

في ليالي الشتاء، حين ينام الناس داخل حجراتهم، كان علي يرى وجوها غريبة في الظلام. ففي أول النوم أو منتصفه، أو في أية ساعة من ساعات الليل، يستيقظ ليرى وجوها تنبثق من الظلام، وتظل تحدق فيه حتى تتسع عيونها وتنفرج أشداقها وتتشوه سحناتها، فينهض مرتعبا ويقذف بنفسه قرب أمه التي تهرع فزعة فتضمه إلى صدرها وهو يرتجف رعبا من مشهد الوجوه التي تحدق فيه وتخاطبه بلغة مجهولة. وإذ تزيد من ضوء الفانوس ويتبدد الظلام يفتح عينيه ويشير بيده إلى

الموقع الذي ظهرت منه الوجوه. استبد القلق بمكية الحسن فأخذته ذات يوم إلى الملا في محاولة لتخليصه من ذلك الخوف. كان الوقت عصرا وبيت الملا ليس قريبا. كان يسكن خْلف السدة الترابية الثانية في تجمع من بيوت تشبه بيوت بلدتهم يطلق عليها اسم "الميزرة" يعمل أغلب سكانها بتربية الجاموس وبيع منتجات الحليب. هبطا السدة الترابية نحو زقاق في مدخله دكان صغير. اشترت له حلوى لم يعثر على مثل مذاقها في ما بعد. سألت صاحب الدكان عن بيت الملا فوصف لها الطريق. دخلا الزقاق الضيق. على جانبيه رصفت بيوت طينية واطئة مفتوحة الأبواب. قطعا مسافة ليست قصيرة فسألت مرة أخرى أولادا يلعبون في باحة صغيرة فأشاروا إلى الجهة التي ينبغي ان تسلكها. انعطفت في زقاق آخر شبه معتم ومنه إلى زقاق آخر حتى وصلت إلى البيت فطرقت بابه. لحظات وخرجت صبية بدت كأنها معتادة على استقبال ضيوف، قالت بثقة:

- "تفضلي خالة، الملا موجود".

قطعت معهما باحة الحوش بتلقائية، وأدخلتهما على الملا الذي كان ينظر في كتاب ديني مخطوط وضع في كرسي خشبي صغير خاص بالقراءة. ومن حين لآخر كان صوت الملا يعلو مع عبارات من النص الذي أمامه. كان متربعا على الأرض التي فرشت بسجادة كبيرة ملونة. عندما انتهى من قراءته قال: "السلام عليكم". ردت عليه التحية وبالغت فيها. كان الرجل نحيلا، وقد بدت يده معروقة وهي تمتد إلى لحيته القصيرة المشذبة المصبوغة بالوسمة. لاحظ علي أن عيني الملا مكحلتان. انتبه الملا إلى أن علي ينظر اليه بإمعان فنادى على الصبية بصوت رقيق

وطلب منها أن تأخذ علي إلى باحة الحوش إذ أدرك بخبرته أن مكية الحسن جاءت به ليساعده على الشفاء من علة. سأل الملا مكية الحسن فشرحت له اضطرابات الصبي، فتناول قلما خشبيا ودواة وخط بالزعفران كلمات غامضة على ورقة وطواها بهيئة مثلث، ثم أعد واحدة أخرى مثلها تماما. قال وهو يناولها الورقتين:

- "علقي واحدة بدبوس في كتفه وأربطي الأخرى في وسادته".

أثناء العودة تكررت صورة الملا أمام عيني علي كثيرا. وفي الأيام التالية تلاشت الوجوه المخيفة التي يراها كل ليلة من ليالي الشتاء وحل محلها وجه الملا ذو العينين المكحلتين.

* * *

عصر اليوم التالي عادت الأم من العرس فوجدت ابنها محموما. دثرته بلحاف كي يعرق، وأعدت له شرابا من الأعشاب ثم مسدت جسده النحيف بماء مغلي مع ورق اليوكالبتوس. ومع هبوط الظلام ذوبت قطعة رصاص على نار البريموس وألقتها في إناء ماء فاتخذ الرصاص هيئات لأفاع واشكال مفترسة. تأملتها بقلق واضطربت لأنها لم تتوصل إلى تفسير لا ينذر بالشر. غطته ونام، فيما جلست قربه تصغي إلى تنفسه. آخر الليل همست لسلمان اليونس قائلة إنها ترى أجنحة لإبنها ترفرف تحت الغطاء، أليست هي تلك الأجنحة التي يحلق بها الموتى من الأولاد في فضاء الجنة؟

* * *

في يوم من أيام العطلة المدرسية لم تعارض مكية الحسن عندما أخبرها علي بأن زميلا له في المدرسة أكبر منه سنا أقنعه بفكرة بيع

المرطبات، بل اعتبرت ذلك تمرينا على العمل ونشاطا لجسده الناحل كعود نفّاش(*). في الفجر مضى مع زميله إلى متعهد بيع المرطبات بالجملة. فرأى "شطّيط" أعرض من ذي قبل في عدد من المواقع وقد تحول لون مياهه إلى الأسود المزرق، وعلى حافاته المتشعبة نبتت طحالب وأشنات وسيقان قصب أخضر يحوم حولها البرغش. وفي قاعه تكاثرت الديدان واليرقات اللزجة والحيوانات المائية الشريطية. ورأى العصافير تبني أعشاشها بين أغصان أشجار السدر واليوكالبتوس، والحمام ينطلق من الأبراج في باحات البيوت ويحلق في سماء البلدة لعدة ساعات.

كان النهار قائظا وهو يدفع عربة مرطبات بيضاء بثلاث عجلات وينادي على بضاعته مبتهجا بما باعه في الساعات الأولى الا أن إشتداد حرارة الطقس بعث فيه قلقا حول قدرته على الاستمرار مشيا في الطرقات المتربة اللاهبة.

عند انتصاف النهار ارتفعت الشمس عاليا وانسحب الناس إلى بيوتهم ليناموا القيلولة، فيما استمر يدور بحثا عن مشترين فثمة أولاد مازالوا يستظلون بظل الجدران التي سرعان ما تصلها الشمس فينتقلون إلى ظل آخر عند أطراف السقائف أو البيوت أو الدكاكين المغلقة. كان العرق يسيل من جبينه ومؤخرة رأسه ويبلل قدميه اللتين تنفذ اليهما سخونة التراب من حذائه الكتاني. جفت لهاته، ولم يعد قادرا على فتح فمه، فكف عن النداء على بضاعته. كان بوسعه أن يطرق أي باب ليطلب جرعة ماء الا أنه في كل مرة يتردد ويواصل سيره البطيء.

(*) أغصان تنبت على قصب البردي محملة بمادة يطلق عليها سكان الأهوار في العراق اسم النفاش وتستخدم هذه المادة في صناعة الأكواز والجرار وتنانير الخبز .

إثر ذلك الدوار المنهك تحت لهب الشمس أحس بسائل رطب يهبط من أنفه. وقبل أن يرفع يده لمح قطرة دم تنتشر على سطح العربة الصقيل، تبعتها قطرات أخرى، ثم تدفقت في مسيل متصل. أوقف العربة أمام بيت ودق على الباب. خرجت امرأة بدت كما لو أنها نهضت من نومها للتو. أدخلته الدار بسرعة وأغرقت رأسه بالماء. اجتزأت شريطا من قطعة قماش رقيقة مبللة شفافة تربط بها فوهة آنية فخارية. فتلتها بسمك سيكارة ودستها في أنفه وطلبت منه أن يرفع رأسه. ملأت طستا بالماء ونثرت رذاذا على جسده المرهق وعلى عنقه النحيف، فابتلت دشداشته وإتسعت فوقها بقع الدم. توقف النزيف. وسألته المرأة عن أهله، وإذ عرفت إنه ابن مكية الحسن طلبت منه أن يمضي الظهيرة عندها ريثما تهبط درجة الحرارة لكنه أصر على الذهاب فأوصته بأن يمشي بمحاذاة الجدران.

منهكا دار في طرقات خالية. اجتاز أزقة وممرات لم يرها من قبل. سار سيرا خدرا في متاهات دروب وأزقة وبيوت تكتوي بهواء ساخن حتى وجد نفسه في مواجهة مساحة مفتوحة واسعة أقتلعت أحراشها ونباتاتها البرية. أدرك أنه يقف عند حدود البلدة من دون أن يستطيع تحديد أية جهة. من هناك، من نهاية البيوت، يبدأ طريق ترابي شق حديثا في آخره يقوم بناء ضخم لم يكتمل بعد. ورأى آلات حفر، واكواما من رمل وجص وإسمنت، رأى معدات هدم وأسياخ حديد، وأبوابا كبيرة كأبواب القلاع، وشبابيك صغيرة كنوافذ زنازين، وكتلا من الطابوق في كل مكان. لكنه لم ير أحدا، كأن العاملين انسحبوا قبل ساعات تاركين أدواتهم متناثرة قرب خيمة صامتة تتكئ على سور

واطئ. فكر أن يعود، لكنه قبل أن يستدير سمع صوتا يأمره بأن يتقدم. متتبعا ناحية الصوت رأى في ظل الخيمة حارسا يجلس على كرسي وإلى جانبه عصا. اشترى منه قطعة مرطبات توشك أن تذوب. وقال الحارس إن حر ذلك الصيف لم يشهد مثله طيلة حياته، فلم يعلق علي بشئ. كان يفكر بالمبنى القائم في ذلك الفراغ الواسع. وسأل فجأة عن البناء فأجابه الحارس ببساطة وحزم: "معتقل". ثم أمره بعدم العودة هنا مرة ثانية. لم يفهم علي ما عناه الحارس بكلمة "معتقل" لكنه شعر بأنها تتصل بشؤون الحكومة. كان وجهه متجهما وطريقة كلامه مشدودة متوترة. استدار علي وهو يحث قدميه على مغادرة المكان بسرعة.

في طريق عودته قطع شبكة من الأزقة والممرات حتى اهتدى إلى الشارع الرئيسي فأحس بزوال الخوف. وقبل المساء بقليل فتح العربة بيد خدرة ليتأكد من انجماد المرطبات فلم يجد غير سائل يرقد في القعر.

* * *

في يوم آخر أخذه والده معه لزيارة معامل الطابوق. شاهد مداخن شاهقة تقذف دخانا أسود كثيفا يتصاعد نحو سماء عميقة. فراغ لانهائي في الأعلى وضوء يفيض وينعكس على الأرض فيشتد سطوعه. كان العمال يتصببون عرقا وهم ينسقون الطابوق في صفوف بأيد خشنة مترية داخل شاحنات كبيرة مكشوفة. وثمة فتية بوجوه غائمة وملابس ممزقة بنية من أثر الزيت، يقودون بمرح عربات محملة باللِبنْ فوق سكك حديد دقيقة لإيصاله إلى غرف آجرية عالية متصلة بأفران الفخار حيث يشوى هناك. كانت متعة الفتيان تبدأ أثناء العودة إلى المقالع قرب مجمع اللِبْن إذ تكون العربات فارغة خفيفة تكفيها دفعة واحدة لتنساب

فوق السكة فيقفزون اليها لتحملهم مسافة طويلة في نسيم منعش. ارتعش قلب علي فرحا لتلك اللعبة فتوسل أباه أن يسمح له بمشاركة الفتيان. من الأرض المنخفضة التي عمّقتها الحفارات إبتدأ رحلته بعربة ممتلئة باللبْن، واكتشف أنها تحتاج إلى جهد كبير لتصل إلى الأرض المستوية. أوهم نفسه بأنه قوي مثل أولئك الفتية الذين يدفعون العربات الثقيلة وهم يغنون ويمرحون. قطع أكثر من منتصف المسافة، بمساعدة أقرانه، آملا بالعودة السهلة إذ يدفع العربة الفارغة فتمضي على السكة من دون جهد منه ويقفز عليها منتشيا مسرورا.

حين وصل أمام فوهة الغرف الآجرية العالية استقبله العمال بالتصفيق والهتاف. سحبوا العربة وأفرغوها بحماس. كان حريصا على أن لا يظهر أي علامة للتعب غير أن والده لاحظ تنفسه المتقطع ولهاثه السريع. أعادوا العربة اليه هاتفين بعبارات التشجيع. دفعها فأسرعت منسابة فوق السكة الناعمة. تنسم هبوبا عذبا تسلل إلى أضلاعه. هبط منها ودفعها بقوة أكبر، وعندما قفز اليها هبطت المنحدر بأقصى سرعتها فانحرفت عن خط سيرها وارتطمت بعربات قادمة. حين انهضوه كان رأسه مغطى بالدم فلم يتبينوا موقع النزف. قاده والده إلى المقهى الوحيد المجاور للمعمل غسل رأسه بالماء فلمع جرحا أبيض شحميا. ارتبك الأب فاسعفه العمال الآخرون بالقطن المبلل باليود جلبوه من "الأوفيز"(*). ربطوا رأسه بخرقة من كوفية عتيقة وجلس هناك حتى إنتهاء الدوام. ذلك اليوم شرب زجاجة "كوثر" من زجاجات المياه الغازية التي وضعت تحت قالب ثلج في صندوق خشبي غطي بالخيش.

---

* مكتب إداري تابع للمعمل ، والكلمة مأخوذة من Office الانكليزية

منذ ذلك الحين إرتاب سلمان اليونس في قدرة ابنه على العمل مبكرا وراح يعتمد على جسده الذي كان يضمر له عجزا بدأ يتضح مع مرور الأيام. غير أنه أحس بأمل جديد ملأه بحماس لم يعهده من قبل. ففي اللحظة التي أفاق فيها الباعة في السوق وفتحوا دكاكينهم للنور نقل اليهم سوادي حميد نبأ وقوع تغيير سياسي في البلاد.

حمل سوادي النبأ معه وجرى مسرعا في الطرقات. كان يمر أمام البيوت والدكاكين وينقل الخبر الذي أعاقه عن جلب الخضار والفاكهة. فهو بالاضافة إلى إعتماده على الطبل موردا في الأعياد وحفلات الأعراس والختان وإيقاظ الصائمين وقت السحور كان يساعد أصحاب الدكاكين في جلب ما يحتاجونه من بضاعة يومية من مركز بيع الجملة في باب الشيخ مقابل أجر بسيط.

قال إن الطرق مغلقة، وإن الدبابات نزلت إلى الشوارع. وخلال أقل من ساعة اجتمع الرجال من أنحاء البلدة في المقهى لسماع ما يؤكد أخبار سوادي حميد من جهاز الراديو إذ أن ما ينقله كان دائما موضع شك بالنسبة لهم.

تعلقت الأنظار بجهاز راديو من نوع "سيرا" مغطى بقطيفة بنفسجية وضع فوق رف على الجدار تحت سقيفة عالية. عم البلدة سكون لم تشهده في أي من صباحاتها الماضية. وتجمهر الناس مترقبين الأنباء في المداخل، وأمام الدكاكين، وفي البيوت القليلة التي تملك أجهزة راديو.

أثناء جولته طرق سوادي حميد باب بيت سلمان اليونس فلم يجد أحدا. كانت مكية الحسن والتوأمتان وعلي في بيت عبدالحسين بانتظار الإنجاب الثاني لحليمة التي كانت في الأيام الاخيرة من شهرها التاسع.

حين وصلهم كانت مكية الحسن تذبح قنفذا لتعد منه شرابا لحفيدها سليم، طفل حليمة الأول. القى بالنبأ العاصف وحدثهم عن الجنود والدبابات التي ملأت الشوارع ثم انتقل إلى بيت آخر. خشيت حليمة على زوجها. وضعت الأم القنفذ المذبوح في إناء من الألمنيوم تحت الشمس وحذرت علي من الخروج مع أنها أصبحت تعامله كرجل منذ ان أطل زغب خفيف فوق شفتيه. توسل اليها أن يذهب إلى المقهى فانفجرت غاضبة وطلبت منه ألا يصدق رجلا في رأسه مخ كلب.

في اللحظة التي سمع فيها الناس البيان الأول للثورة انطلقوا فرادى ومجاميع نحو شوارع بغداد مرددين الشعارات التي بدأت تبثها الإذاعة. هناك التحموا مع جموع غفيرة قدمت من مناطق مختلفة معلنة، على نحو مباغت، تأييدها للسلطة الجديدة. ولم ينسحبوا من الشوارع الا عندما أعلن من الإذاعة قرار بمنع التجول. تداولوا أنباء عن مصرع مسؤولين في الحكومة السابقة وفرار آخرين، فيما عبر بعضهم عن استيائه من أعمال قتل حدثت في الشوارع.

في غمرة تلك الأيام أنجبت حليمة طفلها الثاني في غياب عبدالحسين الذي خضع لقرار الانذار العام. وعند عودته بإجازة قصيرة أسماه "نعيم"، وعلق على الجدار صورة لرئيس الوزراء الجديد، وهو يرتدي ملابس عسكرية وكتفاه مزينتان بنجوم لامعة، فيما أهدى أخرى إلى سلمان اليونس الذي ثبتها بمسامير على جدار السقيفة. تأمل سلمان اليونس الصورة. كان الوجه يشع بابتسامة واسعة. وساوره شعور عميق بأن حياته ستشهد تغييرا ما، كما شعرت مكية الحسن بأن بيتها بدا رحبا مزدهيا بوميض الرتبة العسكرية وتمنت من أعماقها أن يصبح ابنها

ضابطا، وتذكرت كيف كان يبدو، وهو صغير، عندما كانت تستعير بيريه قدوري ابن جارتها نشمية أثناء مروره أمام بيتها وتضعها فوق رأس ابنها فيما يعلمه قدوري المشية العسكرية.

لعدة أيام استمرت المهرجانات بين سكان البلدة الذين غمرهم شعور عام بأنهم مقبلون على حياة جديدة من دون أن يتأملوا حقيقة ذلك الشعور. لقد بدوا كما لو أن هناك قوة ما تحركهم وتجذبهم إلى زعماء الثورة. لكن مظاهر الفرح في البلدة اختفت عندما شب حريق هائل في خزانات الوقود المجاورة أتى على نصف بيوت البلدة القريبة من سدة ناظم باشا وحولها إلى رماد.

الفصل الثالث

في ظهيرة قائظة من آب عاد سلمان اليونس من معمل الطابوق. كانت المداخن العالية تنفث بصمت كتلا سودا متصلة بقبة السماء البعيدة. ساقاه ثقيلتان لا تقويان على حمل جسده. يتطلع إلى المسافة المتبقية من الطريق بإتجاه بيته بعينين مبللتين بالعرق، يظللهما من شدة السطوع بطرف كوفيته. لم يكن يرى سوى بياض يهبط على سقوف المنازل ويذوب في غبار الفراغ العلوي الشاهق. وإذ يتوقف ليريح قدميه المتعبتين يشد كوفيته التي تعبث بها دفقات ريح قوية مفاجئة.

برفق هبط السدة الترابية الثانية نحو جادة تحاذي مستنقعات بركت في مياهها جواميس لم تظهر سوى أعناقها مسترخية في برودة الماء الراكد. وفي سيره الخافت المنتظم كان يتوسل الظل محاذاة جدران البيوت الطينية وهي تتلظى تحت لهب الصيف فتبدو كما لو أنها تنصهر في اتون الحرارة الخانقة رغم هجمات الرياح المتقطعة.

بوهن دفع الباب الخشبي. في زاوية من الحوش المرشوش بالماء كانت مكية الحسن تسجر التنور. وفي ظل السقيفة المفتوحة لضوء النهار جلس علي يقلب أوراق كتاب مدرسي عتيق من دون غلاف. لمح ظل والده يرتسم على الأرض فنهض وناوله طاسة ماء من جرة فخارية رطبة. جلس

الأب متكئا على الجدار بعيدا عن وهج التنور وهو يشكو من مفاصل ركبتيه، ويتساءل مع نفسه عن سر الورم في قدميه.

في الخارج هبت ريح عنيفة جرفت معها التراب والأكياس الورقية والخرق المتروكة في الفسحات الضيقة خلف البيوت وفي الأزقة المغلقة المتداخلة. قالت مكية الحسن وهي تسحب ذراعها المبللة من التنور الساخن: "إنها ريح السموم".

كان علي يرسل نظرة منكسرة عاجزة إلى والده الذي أغمض عينيه وترك جسده المنهك مسترخيا على الأرض. وكما لو أنه أفاق من حلم فتح سلمان اليونس عينيه فجأة وتفرس في وجه ابنه فابتسم في سره عندما تيقن من الحياة المتحفزة الكامنة في علامات الزغب فوق شفتي الفتى، ثم الحياة العميقة المتأهبة للإنفلات من جسده النحيل الهادئ المحترس. تلك اللحظة دوى انفجار عنيف. وفي وميض خاطف إرتجت الأرض. تمايلت السقيفة وتساقطت أرغفة الخبز الناضجة عن كتف التنور. وصرخت الأم: "زلزال".

هكذا اعتقدت للوهلة الأولى.

في الأعلى كانت الريح تدفع كتل النيران من جهة سدة ناظم باشا إلى شرق البلدة في سماء تحولت إلى شعلة حمراء قانية تنحدر ألسنتها وتنشطر أثناء هبوطها إلى مئات الأجزاء الحارقة وهي في طريقها إلى بيوت السعف والقصب على جانب الجدول. لم ينتبه سلمان اليونس إن كان وثب أو أنه انقذف داخل الغرفة الطينية ليلتقط بخفة نمر مصحفا في محفظة من قماش أخضر. أمسك علي من رسغه واتجه إلى الشارع من دون أن يفكر بأي شيء آخر. كان الناس يهربون مرتعبين. مئات

الرجال والنساء والأولاد والفتيات يركضون بهلع نحو السدة الترابية الثانية. في منتصف الطريق اطمأن سلمان اليونس إلى أن ابنه سيصل إلى مكان آمن فسلمه المصحف وأطلقه مثل طائر صغير وعاد لينقذ زوجته وابنتيه متفاديا الإرتطام بالنساء والشيوخ والأطفال الذين إتجهوا فزعين إلى أنحاء مختلفة. كانوا يجاهدون للوصول إلى ما وراء السدة الثانية لتفادي النيران التي تلسع ظهورهم والتي خيل اليهم أنها تلاحقهم في كل مكان.

وهو يرتقي سفح السدة محتضنا المصحف بين يديه كان علي يتلفت خائفا إذ يرى شررا يتساقط فوق البيوت. وعندما أصبح فوق السدة تماما شاهد اللهب ينبعث من خزانات الوقود قرب ساحة الطيران وتتسع نهاياته كلما توغل في السماء الفسيحة مدفوعا بعنف الإنفجار وقوة الريح.

بين النسوة اللاتي كن يكابدن للوصول بأطفالهن وأمتعتهن إلى سفح السدة الثانية لمح أمه تقود البنتين صبيحة ومديحة خلف حشود الناس الزاحفين وهم يتسلقون السفح مبعثرين مثل قطيع خراف مفزوع. هبط ليساعدها. كانت مرهقة، يغطيها العرق والغبار والدخان. إتكأت عليه وهو يسحب البنتين. فوق السدة جلست ترتجف وهي تتطلع إلى النيران الفوارة المتصاعدة. كان وجهها أحمر من شدة الحر. مسحت عرقها بفوطتها فسقطت في حجرها. من هناك لم يكن من السهل التقاط نثار الكلمات المختلط بأزيز القصب والسعف والأعمدة الخشبية وجذوع النخيل التي كانت تتهشم في سعير النيران. من بعيد أقبل والده يحمل أفرشة جمعها في بطانية وربطها من الأعلى وإلى جانبه حليمة تحمل

طفلها الملفوف بقماط فيما كان رجل غريب تطوع لمساعدتها يحمل سليم، ابنها الأول، على كتفه. هناك على امتداد السدة الثانية تجمع حشد آخر من الناس يتطلعون إلى النيران المتوقدة ويتنشقون رائحة أجساد محترقة.

عند العصر هتف صوت من خلال مكبر ثبت فوق سيارة عسكرية كانت تطوف قرب التجمعات البشرية قائلا إنها اعمال تخريب ضد الثورة، وأطلق سلسلة من الشعارات الموالية للحكومة. وفي جولة أخرى أعلن عن اسماء المفقودين من الأطفال والشيوخ والعجائز الذين عثر عليهم، ودعا ذويهم إلى مراجعة مركز شرطة باب الشيخ لاستلامهم. وطلب من الناس البقاء خلف السدة حتى تتم السيطرة على خزانات الوقود الأخرى المرشحة للانفجار.

قبل الغروب بقليل انقطع السيل البشري وتجمع الناس فوق السدة الثانية قرب ما أنقذوه من أفرشة وأمتعة. تلك الأثناء جاء سوادي حميد يحمل الطبل وينتطق حزاما جلديا تعلوه بلطة صغيرة. كان رأسه حاسرا وملابسه ملوثة بالسخام.

لحظة الانفجار كان يتجول في الأزقة القريبة من خزانات الوقود بعد أن أمضى نصف نهاره في مقهى بشارع الشيخ عمر تعقد فيه معارك للديكة. حين سمع الدوي خطر له بيته وطبله وحماماته. لكنه انضم إلى رجال، كانوا وهم بملابسهم الداخلية، ينقلون المياه في جرادل من الجدول في محاولة لإخماد النيران التي تلتهم البيوت. وفي مكان آخر تعاون مع جنود جاءوا بشاحنات عسكرية لإنقاذ العوائل المحاصرة فيما كانت سيارات الإطفاء تكافح النيران المتزايدة تتقدمها جرافات لهدم البيوت

خشية امتداد الحرائق إلى البلدة كلها. لكنه انسحب مرتعبا متقززا عندما رأى مشهد الجثث المحترقة.

على السكة الحديد وضع طبله باحتراس. فسأله الناس عما أنقذ من بيته فأشار إلى الطبل قائلا إنه لا يملك غيره، وهو أغلى شيء عندي، ثمين مصنوع من جلد لبوة.

في الليل دوى انفجار آخر. تدفقت النيران فأضاءت البلدة وما حولها. أمضى الناس ليلتهم ساهرين غير أن سلمان اليونس غفا وهو جالس مستندا إلى صرر الأمتعة وإلى جواره مديحة التي نامت لحظة وصولها، فيما اختفت صبيحة تلتقط الأحجار بين الأسر المحتشدة على إمتداد السدة الثانية حتى الجسر الحديد.

قبل منتصف الليل هدأت الحركة قليلا وتناثر الناس على المنحدر أو فوق أغراضهم مرهقين قلقين على بيوتهم ينتظرون تلاشي النيران. تذكرت مكية الحسن أنهم تجمعوا يوما ما في هذا المكان هربا من الفيضان. ففي شهر نيسان من ذلك العام واصلت مناسيب مياه دجلة إرتفاعها وخلال أيام تفجرت فاكتسحت الأسوار والبيوت والحدائق والأشجار، وتجاوزت الحواجز الصناعية الطارئة وأغرقت البلدة تماما ولم يبق أمامها سوى مداخن معامل الطابوق. يومها انقطعت المواصلات بين المدن، وتوقفت الملاحة في النهر، وأعلنت السلطات عزمها على إقامة مشروع أطلقت عليه اسم "مشروع الثرثار"، لوقاية بغداد وما جاورها من فيضانات قادمة. ساعتها تطوع الآلاف من الشباب والطلاب والجنود والعمال لإنقاذ الأسر التي تعرضت لخطر الغرق فيما كانت الطائرات العمودية تلقي أطنانا من المواد الغذائية على التجمعات البشرية

الكبيرة. ولأكثر من شهر ظلت المياه تغمر مساحات واسعة من الأراضي وتخلفت عنها برك ومستنقعات تكاثرت فيها الأسماك والمخلوقات المائية الغريبة، كما نتجت عنها أمراض الديزانتري والبلهارسيا والملاريا والتيفوئيد التي أدت إلى هلاك آلاف الأطفال.

بموازاة السكة الحديد تجول سوادي حميد متفقدا معارفه يرافقه علي الذي كان منبهرا بالجمع الغفير المحشو بين أكوام الأفرشة. تلك الليلة رأى بدرية إلى جوار شقيقها مزعل. كان وجهها يقابل شعاعا يأتي من مكان ما فيبرز فتيا نظرا داخل إطار الفوطة السوداء. أحس علي بشيء ما يجذبه إلى جلستها السحرية في مواجهة ذلك الشعاع. عينان سوداوان عميقتان تنعقدان كزهرتين بريتين على صفحة البياض. تذكرت أنها كانت تلعب معه حين تذهب مع والدتها لفصد دمها عند مكية الحسن. كان ذلك قبل وفاة الأم المفاجئة. أرادت أن تقول له "إجلس معنا" لكنها خشيت من أخيها، فأدارت عينيها إلى جهة أخرى.

صباح اليوم التالي طافت السيارة العسكرية وطُلِبَ من سكان البلدة عبر مكبرات الصوت أن يظلوا في أماكنهم حتى ينفجر الخزان الثالث. تفرق الأطفال للعب فوق سفح السدة ومنحدراتها أو قرب الجواميس التي رقدت في مياه المستنقعات، فيما انصرف الكبار إلى تفسير الحادث والشائعات القادمة من أرجاء المدينة.

ولأنه لا أحد يعرف بالضبط متى ينفجر الخزان الثالث اقترحت مكية الحسن أن يمضوا أيام الانتظار لدى أختها التي تقيم في مجمعات متناثرة وراء معامل الطابوق عند انعطاف سكة الحديد باتجاه "خان بني سعد". استجابوا لها، فحملوا أفرشتهم على أكتافهم ورؤوسهم ومضوا.

كانت الشمس ترتفع وتشتد حرارتها شيئا فشيئا. خشيت حليمة على وليدها فظللته بعباءتها. ومن حين لآخر كانت ترفعها وتلقي نظرة عليه وتمسح العرق المتصبب من جبينه المحمر. فكرت بعبدالحسين الذي لم تره منذ عدة أيام بسبب الإنذار العام الثاني للجيش. ساروا واحدا إثر الآخر في خط مستقيم حذرين من الارتطام بسكة الحديد. في منتصف الطريق سألتهم حليمة أن يطلبوا ماء من أحد البيوت المحاذية للسدة فأنزلوا أغراضهم، تركوها في الأعلى وهبطوا نحو مستنقع ازدحم بجواميس ترقد دون حراك مكتفية بتحريك أفواهها المفتوحة حركة آلية تتيح تساقط بقايا التبن واللعاب. طرقوا بابا معدنيا مفتوحا فظهرت امرأة بدينة زينت يديها بأساور ذهبية، رحبت بهم، وأسفت لما حدث، ودعتهم للدخول. اعتذروا مكتفين بطلب الماء قائلين إن طريقهم طويل وإنهم يودون الوصول قبل انتصاف النهار خوفا على الصغار من حرارة الشمس. سقتهم ماء باردا من قدر كبير وضعت فيه قطعة ثلج. شربت حليمة أكثر من مرة، وحملت قطرات وبللت فم الرضيع فشعر بها وهو مغمض العينين. ومن برميل كبير غسلوا وجوههم وأيديهم وأرجلهم، واستأنفوا سيرهم متبوعين بدعاءات المرأة.

برودة الماء ورقة قلب المرأة البدينة بعثت فيهم نشاطا فأسرعوا في خطوهم صامتين متجاهلين ثقل الأغراض. قطعوا مسافة أخرى حتى خلفوا حدود بلدتهم وراءهم فانتبه علي إلى قاعات بيض كبيرة مطوقة بأسلاك شائكة تربض وسط برية خالية. كانت القاعات تشبه الصفوف المدرسية وقد تركت بينها مساحات واسعة. كل شيء في المبنى يوحي بالفراغ. حتى المداخن الصغيرة التي تعلو قاعة منفردة كانت معطلة.

تذكر علي أنه مر من هناك يوما ما. وهتف بصوت بدد السكون: "المعتقل"، فالتفت الجميع إلى الناحية التي أشار اليها. تفرسوا فلم يتبينوا أثرا لأحد. كان سلمان اليونس قد شاهد أعمال البناء أثناء ذهابه إلى العمل وعودته منه. وتساءل في نفسه عن الزمن الطويل الذي استغرقه البناء، وعن السبب الذي دفع السلطات لاختيار خاصرة البلدة موقعا له. كان المبنى صامتا، وهم يمشون صامتين، كأن المكان نفذ إلى أرواحهم ودفعهم إلى السكون والتمهل في مشيهم. وكما لو أنها انتهزت فرصة انشغال الجميع التقطت صبيحة حجرا وهي تتطلع اليهم خشية أن يكون أحد منهم قد رآها. وإذ أدركت أنهم مشغولون عنها تذوقت طعم الحجر بهدوء.

كانت الأرض المتربة تسخن تحت أقدامهم. قالت حليمة بضجر:

- "الطريق طويل".

فأجابت الأم: "سنرتاح في محطة القطار".

أحست حليمة بالتعب من حمل ابنها الرضيع فناولته إلى علي ريثما ترتاح ذراعها قليلا. تلك اللحظة لمحت مكية الحسن حروقا طفيفة خلف عنق علي، ووعدت بمعالجتها بالحبر عندما تصل إلى بيت الخالة.

من رواق على جانبيه أشجار رمان دخلوا محطة القطار التي غطت واجهتها نباتات متسلقة كثيفة تتصل بعريشة عنب، تحتها إلى اليسار حوض إسمنتي مربع تنتصب فيه حنفية ماء كبيرة لخدمة القطارات الذاهبة والقادمة. ولأن المحطة خالية لا يعمل فيها أحد اتخذتها البيوت القليلة المتناثرة حول معامل الجرار مصدرا للتزود بالمياه مجانا، حسدتهم حليمة دون أن تعلن ذلك. تحت ظل وفير بارد جلسوا قرب الماء الذي

تركوه يتدفق شفافا من فوهة الحنفية الرمادية، ويرتطم بقاعدة الحوض فيرتد إلى الأعلى رذاذا منعشا. أطفأوا ظمأهم، كما أطفأوا الأبخرة الملتهبة المتصاعدة من أجسادهم. بخرقة بالية أغلق علي فتحة تسريب الماء إلى حديقة صغيرة مسيجة بزهور الدفلى ونباتات الآس. اغتسلوا، بللوا ثيابهم، وتركوا أقدامهم للمياه فتسلل اليهم خدر لذيذ لامس أجفانهم المرهقة. ومن دون أن تخلع البنتان ملابسهما نزلتا إلى الحوض وأغرقتا جسديهما بالماء ولعبتا صاخبتين.

وصلوا إلى مجمع الأكواخ. طرق علي بابا خشبيا ونادى على خالته فيما احتمى الآخرون في الظل مستندين إلى سياج طيني تعلوه مثلثات زجاجية حادة ثبتت كحاجز ضد اللصوص. انفتح الباب وحين رأتهم الخالة بكت وتبادلت القبلات مع أختها وابنتها، ودعتهم للدخول بعواطف حارة مرتبكة كشف عنها اختلاط كلمات الترحيب والاخطاء التي رافقته. ما أن جلسوا حتى بكت ثانية واستمرت في نشيج متصل لم تنفع معه توسلات سلمان اليونس الذي كان ينطق أحرف الكلمات بصعوبة من شدة الإرهاق. إنها في كل بكاء تتذكر ابنتها البكر التي عندما بلغت العاشرة من عمرها ازرق جسدها فجأة وماتت. قيل وقتها إنها داست على عظم أفعى سامة.

نام سلمان اليونس نوما عميقا. نظرت اليه مكية الحسن فشفقت عليه وقالت لأختها بنبرة افتخار إنه فعل ما لم يفعله حصان. وروت لها وقائع اليوم الماضي، فيما انشغل علي مع ابن خالته يوسف الذي قاده إلى غرفة تستخدم للوقود وراح يستعرض الأشياء السحرية التي عثر عليها في المزبلة: ركام متكدس من عجلات دراجات هوائية، مصابيح

يدوية ملونة، نظارات شمسية بدون عدسات، علب أطعمة أجنبية رسمت عليها مراع خضر، قطع نقود، مراوح صغيرة مثلمة، دمى تساقط شعرها، نماذج لسيارات مصغرة، أشرطة أفلام بلقطة واحدة مكررة، أساور معدنية، مزامير، وبطاريات مختلفة الأحجام.

لم يستيقظ سلمان اليونس من نومه الا عندما عاد زوج الخالة من معامل الجرار. أعادوا وقائع الليلة الماضية مرات ومرات، وتناقلوا الشائعات حول الحريق وحول خلافات بين قادة الثورة العسكريين حتى وقت متقدم من الليل.

في الليلة التالية سمعوا صوت انفجار الخزان الثالث. وفي الصباح قرروا العودة. رافقتهم الخالة حتى منتصف الطريق. يومها أخذ علي من ابن خالته يوسف إطارا معدنيا لدراجة هوائية يستخدمه الأولاد كلعبة بعد أن يسوقوه بقصبة فيندفع إلى الأمام دون أن يتوقف أو يسقط.

أثناء عودتهم لم يجدوا أحدا من سكان البلدة فوق السدة الثانية. كانوا رجعوا إلى بيوتهم بعد الانفجار الثالث تاركين خلفهم نفايات مبعثرة: معلبات، قنان فارغة، أكياس ورقية وبلاستيكية، ألواح مفككة من صناديق فاكهة، وفتات خبز من معامل عسكرية.

تفقد سلمان اليونس البيت. كانت السقيفة منهارة. رفع عمودا خشبيا كان مطروحا على الأرض فنهضت السقيفة واتضحت صورة رئيس الوزراء تطل على باحة الحوش. وفي أسفل التنور، الذي تهدمت إحدى دكتيه، انتشر فتات خبز يابس.

في بيت حليمة لم يجدوا آثار حريق، كما لم يجدوا أي علامة لمجيء عبدالحسين من المعسكر. رتبت مكية الحسن احتياجات الطفل.

مسحت جسده الطري الساخن بمسحوق الزرقيون القرمزي لتفادي اثار حرارة الشمس، وأعدت له شرابا مغليا يدعى "مضغة" قد يحتاجها في الليل، وعادت مع ابنها إلى بيتها عبر سوق البلدة. كانت السوق خالية كأن الباعة لم يعودوا إلى بيوتهم بعد. على الأرض الترابية الصلدة تساقطت أوراق اشجار جافة، ونباتات حلفاء متيبسة. وتكومت أجزاء من السقائف أمام الدكاكين. على المصاطب الفارغة اندلقت أنواع مختلفة من الفواكه والخضار وأكياس التمر والخيش منذ اللحظة التي اندلع فيها الحريق. ومن جهة المقهى لم يأت أي صوت. كانت التخوت الخشبية خالية والطاولات متفرقة بغير انتظام وقد انقلبت أو تهشمت فوقها أواني الشاي وقناني المياه الغازية المحطمة أو الفارغة. لم يكن هناك سوى ضوء النهار يطل من الأعلى ويضئ البلدة بشعاع غزير ساكن. في ركن قصي شاهدا امرأة عجوز بملابس حداد تقف خلف عربة عليها سلة رطب، وإلى جانبها سطل لبن وضعت فوقه لوحا خشبيا عليه قطعة ثلج ذائبة. اشتروا منها. تذوق علي الرطب. كان له مذاق خاص لم يجربه من قبل. وراحت المرأة تتحدث حديثا متصلا دون توقف. تكلمت عن الناس الذين يذهبون إلى المآتم التي أقيمت لضحايا الحريق، عن رجال الإنقاذ الذين تمكنوا من انتشال نسوة عاريات من تحت الانقاض، عن الأطفال التائهين، وعن المسنين الذي تساقطوا تحت أقدام الهاربين من النيران. روت حكايات كثيرة اقشعر لها بدن علي وظلت مكية الحسن تتخيلها حتى وصلت إلى بيتها. أعاد علي المصحف إلى موقعه في الغرفة الطينية وأحس برغبة قوية بأن يلوذ في حضن أمه.

تلك اللحظة جاءت جارتها نشمية تندب حظها إذ اكتشفت أن

مدخراتها سرقت أثناء غيابها عن البيت. سخرت منها مكية الحسن التي كانت تعرف كم هي قليلة النقود المعدنية التي تدخرها جارتها في صفيحة النفط، وعاتبتها على عدم إكتراثها بضحايا الحريق، واردفت أن لا أحد يخطر بباله أن يسرق منك القرشين في تلك المحنة.

لم ير أحد نشمية بثوب ملون أبدا. كانت ترتدي دائما الملابس السود من رأسها حتى قدميها منذ أن أهملها زوجها مسعود، وهي شابة، وتزوج من امرأة أخرى بعدحصوله على عمل فرّاشا في مستشفى الهلال الأحمر. وإذ ليس ثمة مكان تذهب اليه أو أقارب في البلدة تحتمي بهم عطف عليها زوجها واقتطع لها جزءا من بيته. بعدها اضطرت إلى بيع الحلويات أمام بيتها في (جنبر)(*)، والنفط الكيروسين في قنان لبيوت الجوار. كانت تشكو دائما من أن الأولاد يسرقون الحلويات أو النقود التي تضعها تحت كيس ورقي في الجنبر، فأخذت تحفظ نقودها القليلة في طرف فوطتها أو في صفيحة النفط.

شربت نشمية الشاي وهي تشعر بالخجل من عتب جارتها عليها وغادرت صامتة فيما ظلت مكية الحسن ساهمة وهي تصغي إلى تلاوة قرآنية تأتي من بعيد.

* * *

حين عاد مزعل بصناديق الفاكهة والخضار كانت أخته بدرية قد رتبت التخوت الخشبية ونظفتها. بدت ذلك اليوم أصغر من عمرها، جذابة، فاتنة، رغم ان وجهها بدا مرهقا من تعب الأيام الماضية.

---

* مستطيل خشبي مكشوف مقسم إلى خانات . عادة ما يستخدم لبيع الحلوى .

بعد أن أنهى مزعل خدمته العسكرية عهد اليه والده بإدارة الدكان بعد أن حصل على عمل بمرتب ثابت في أمانة العاصمة. ومنذ ذلك الحين أخذ مزعل يخرج كل فجر إلى مركز البيع بالجملة في أسواق باب الشيخ لجلب بضاعته، فيما تهيئ بدرية المصاطب لعرض البضاعة المتبقية من أمس وترتيب مكان للخضار الجديدة. كان مزعل هادئا، لا يشكو ولا يتذمر، ولم يعبر عن رغبة في الزواج من فتيات البلدة. مرة اقترح عليه والده اسماء عدد من الفتيات ليختار من يطلب يدها له فتعلل بظروفه المالية الصعبة.

ذلك اليوم خرج أخوة كلثوم من السجن. ظهروا وقت المساء، توقفوا في ساحة السوق الصغيرة بوجوه كئيبة متعبة لكنها صارمة قاسية. اجتمع حولهم حشد من الناس مستفسرين عن أيام السجن ومدة حكمهم، فأجاب الأوسط باقتضاب إنهم الآن يستطيعون أن يمشوا ورؤوسهم مرفوعة. وقال أكبرهم، الذي بدا كأنه هو من نفّذ عملية القتل: "المهم غسلنا عارنا، ليس المهم كم عدد الأيام التي قضيناها في السجن". حين رأتهم بدرية اعتصر قلبها، وأحست بألم في احشائها. رأت صورة كلثوم المتخيلة تكبر تدريجيا لتحتل الفراغ أمامها، ثم تتلقص لتصبح كفا واحدة ضخمة يقطر منها الدم.

في الليل، وهي في رقدتها تحت النجوم في باحة الحوش، حلمت بالفتاة القتيلة وتمنت لو كانت على قيد الحياة لتعرفت عليها ولتمتعت بصحبتها، لروت لها كلثوم حكايات عن من تحبه، ولشرحت لها مشاعر العاشقة التي لم تعرفها بعد. لكنها انشغلت عن ذلك في الأيام التالية حين سمعت بنبأ زيارة رئيس الوزراء إلى البلدة.

الفصل الرابع

قبل ساعات من وصوله خرجوا لاستقباله في مظاهرة كبيرة بإتجاه خزانات الوقود. بدأت المسيرة من نهاية السوق يقودها صف رجال يحملون دمية بهيئة حمامة بيضاء أعدت من قماش وقطن وأسلاك معدنية. وفوق رؤوسهم المتقاربة يافطات كتبت عليها عبارات ترحيب تعلوها بالونات ملونة، وأخرى بشعارات تناهض حقبا سياسية وأحزابا وقادة وزعماء ورؤساء دول. ساروا في قافلة طويلة متصلة يهتفون بحياة أول مسؤول يزورهم منذ أن وضع أجدادهم الرواد أول حائط طين. طلاب وعمال وجنود وشرطة ومستخدمون وشغيلة البلدية كانوا ينشدون قصائد مديح ويغنون ألحانا ريفية حورت كلماتها الشعبية البسيطة لتصبح شعارات سياسية، فيما انتشر عدد من المتطوعين الذين كانوا يدمغون سواعد الأولاد والفتيان والفتيات بختم حمامة كناية عن السلام.

من بين رؤوس المستقبلين شاهد علي الأرض الخالية التي كانت قبل الحريق تغص بالبيوت المكتظة المتداخلة. ورأى أسيجة طينية جديدة وحزم سعف وقصبا وأكياس نفّاش وأعمدة خشبية وجذوع نخيل استعدادا لإعادة بناء البيوت التي تهدمت أثناء الحريق.

فوق سدة ناظم باشا، قرب محطة البنزين، احتشد المتظاهرون في

كتل بشرية تعلوها البيارق والرايات. في الأسفل كانت البلدة تربض ساكنة وقد بدت بيوتها مثل طيور صغيرة خاملة تصغي إلى الأناشيد والأغاني والهتافات. وحدها خانزاد، المرأة الكردية العجوز، لم تكن تسمع شيئا. إنها منشغلة بهذيانها المحموم الذي لم ينقطع منذ أن فقدت حفيدها وتوحدت في الطرقات تسأل عنه المارة. عند القنطرة توقفت لتلتقط أنفاسها اللاهثة، وحين مر بجانبها رجل أوصته بصوت متقطع مجهد أن يطلب من رئيس الوزراء أن يعيد لها حفيدها الذي لم يبق لها سواه بعد وفاة والديه.

* * *

في الصيف من كل عام يتسلل الأولاد سرا، خوفا من ذويهم، إلى نهر دجلة للسباحة. يلقون كتبهم وحقائبهم على الشاطئ وينزلون إلى المياه عراة أو بملابسهم الداخلية يلعبون ويتشاجرون ويتبارون في تقليد الحيوانات المائية في المملكة السحرية تحت الماء.

كان بوران، حفيد المرأة الكردية العجوز، يمر بمحاذاة النهر كل يوم أثناء ذهابه إلى معمل الخياطة. كثيرا ما كان يقاوم رغبته في النزول إلى المملكة السحرية وتقليد الحيوانات التي تحدثت عنها حكايات الليل وروت قصصا عجيبة عن ظلام المياه السفلية، لحظة تحول الأجساد الصغيرة إلى أشباح لا يراها أحد، أو حين تضاء مصابيح المياه احتفالا بالحياة السرية العائمة.

ذات مساء قائظ، أثناء عودته من معمل الخياطة، لم يجد أحدا يخشى أن يخبر جدته بما سيفعله، ذلك أن الأولاد كفوا تلك الأيام، مؤقتا، عن المجيء للسباحة في النهر بعد تهديدات آبائهم الذين

اكتشفوهم أكثر من مرة من شعورهم المجعدة أو ملابسهم الداخلية الرطبة الملطخة بالوحل. وقف يتطلع في صفحة الماء الهادئة، ويبصر أشداق النهر المفتوحة، مصغيا إلى الأصوات المبهمة التي تدعوه للمشاركة في مهرجان المخلوقات المائية. خلع ملابسه وهبط باحتراس محاولا تلمس الأماكن الخطرة بقدميه، تلك الأماكن التي لا يعرفها حتى الأولاد المجربون. جذبته إغراءات المياه وابتعد كثيرا نحو الممرات المؤدية إلى مملكة الضوء مبتهجا بالبلل والإكتشاف. من هناك اقتفى أثر المخلوقات المائية الوهمية الذاهبة باتجاه المصابيح. ولم ينتبه إلى الهوة العميقة التي أثارت الفزع يوما ما في قلوب الملاحين الذين حاولوا قبل عقود قياس عمقها باستخدام أعمدة دقيقة طويلة.

ظل يهبط من دون أن يرى المخلوقات المائية وغاص في القاع مشدودا إلى أصداء الرواة السحرة الذين يقصون حكايات الفتية الغرقى لكل قادم جديد. وعلى سطح الماء، أو على الشاطئ لم يسمع أحد سوى نداء استغاثة بعيد خافت انطلق من قلب النهر العميق.

عندما سمعت خانزاد النبأ صرخت دونما صوت، إذ تلاشى صوتها في اللحظة التي شع وميض خاطف في بصرها. همهمت بكلام نطقته بلغتها الأصلية. هرعت إلى النهر وأمضت عدة ليال على الشاطئ. وبعد أيام عثر على جثة صغيرة منتفخة عند منعطف الكرادة. منذ ذلك اليوم أخذت تخرج كل صباح إلى الطرقات تفتش عن حفيدها في وجوه المارة والغرباء وعابري الطريق، وفي الليل تعود إلى بيتها تنام وتحلم وتتنبأ بوقائع غريبة لم يصدقها أحد. قالت إنها تسلمت رسالة من رئيس الوزراء تعهد فيها بإعادة بوران خلال أيام . وفي يوم آخر قالت إنه وعد

بدفع مرتب لها إلى أن يتمكن من إعادة حفيدها. بعد ذلك بفترة قصيرة قالت، للنسوة في الجوار، إنها لقيت في الطريق الملابس العسكرية لرئيس الوزراء وكانت مبقعة بالدم. لكن الواقعة الأكثر غرابة تلك التي روتها في السوق أمام جمع من النساء، وتناقلتها البلدة كلها. قالت إنها رأت رئيس الوزراء في القمر. وصدق الناس تلك الرؤيا. انتظروا مجيء الليل وسهروا حتى الصباح. نساء ورجال افترشوا الطرقات وعيونهم تتطلع إلى السماء فيما نام الأطفال في أحضان أمهاتهم اللاتي فضلن مراقبة السماء على النهوض ونقل أولادهن إلى أفرشتهم داخل البيوت حتى تسلل النعاس إلى عيونهن. غير أن فتية راحوا يجوبون الطرقات يحملون الشموع ويقرعون الأواني المعدنية وصفائح النفط الفارغة كانوا يحدثون ضجيجا يمنع المنتظرين من مواصلة الغفو المفاجئ القصير. وحين استبد بهم التعب وأرهقهم النعاس ولم يظهر رئيس الوزراء على صفحة القمر انسحبوا إلى بيوتهم يلومون أنفسهم على تصديق ما اعتبروه خرفا من امرأة مسنة مكلومة. ومع ذلك تعمقت الاسطورة يوما بعد يوم وانتشرت في كل مكان، وتخيل بعضهم أنه شاهد فعلا صورة رئيس الوزراء في القمر الأمر الذي عززه الإعلام الحكومي حين طبع الأسطورة في صورة وزعت على نطاق واسع.

* * *

جلست عند القنطرة تتصبب عرقا ينحدر على وجهها وعنقها مع علامات السنين والعروق الزرق النافرة. تحدق في وجوه المارة الذين كانوا يمضون مسرعين متلهفين لرؤية رئيس الوزراء لأول مرة عن قرب. تلك اللحظة ترجل من سيارته مبتسما رافعا يده لتحيتهم.

لم تكن تلك زيارته الأولى للبلدة إذ كان غالبا ما يترك مكتبه ويتجول ليلا بسيارته، يطوف حولها ، ويخمن حجمها ومساحتها . وذات مرة، وكان الوقت مساء، أوقف سيارته في المكان ذاته. نزل منها وألقى نظرة على البلدة بعينين حالمتين وعندما عرفه الناس هرعوا اليه يهتفون، ويقبّلون سيارته، يومها قال لهم إنه واحد منهم، إنه ابنهم ونصيرهم.

ذلك اليوم بدا رئيس الوزراء أنيقا وسيما عازما على قول شيء يمس حياتهم وتاريخهم. ألقى خطابا طويلا فيما كانت تقاطعه الهتافات والأهازيج. استقبلوا كلماته بدهشة وحب إذ أحسوا بعمقها وصفائها. لقد كان يوما ما قريبا منهم عندما رأس اللواء الذي أسهم في درء خطر آخر فيضان وأنقذ البلدة من الهلاك. لذلك تحدث في خطابه عن أهمية إنجاز مشاريع السدود في حماية البلاد من الفيضانات. تحدث عن أسلافهم عبر القرون، عن وعود الحكومات السابقة، عن شركات النفط الأجنبية، وعن ثروات الشعب المهدورة. وقبل أن يختتم حديثه قال إنه سوف يشكل لجنة مختصة لوضع مشروع إنشاء دور سكنية حديثة لهم فيها الماء الصافي والكهرباء والمدارس والمستشفيات. صفقوا بقوة وعيونهم تتطلع إلى ابتسامته العريضة وإلى عينيه القلقتين غير المستقرتين. وعندما أراد أن يغادر تدافع الناس نحوه يحتضنون سيارته التي شقت طريقها بصعوبة من دون حراسة كبيرة. بعدها تفرقت المسيرة ببطء، وأخذ الناس يهبطون إلى البلدة باتجاهات مختلفة.

أثارت كلماته اضطرابا كبيرا إذ تواصل الحديث عن مشروع السكن في الدوائر والمدارس والبيوت والشكنات والتجمعات. وراح قسم منهم بتخيل تصاميم البيوت، بل ان كثيرين إتسع خيالهم إلى الحد الذي

رسموا مدينة كاملة. حتى أن رجالا عرفوا بحكمتهم ورجاحة عقولهم كفوا عن ترميم البيوت والسقائف التي دمرها الحريق، وسخروا من سلمان اليونس الذي بدأ بحفر بئر استعدادا لبناء غرفة لأخيه الذي قرر أن يأتي إلى البلدة مع زوجته بعد أن اضنتهما العزلة في الريف النائي.

* * *

لم يكن بمقدور سلمان اليونس أن يتذكر سنة قدومه إلى البلدة لكنه يتذكر الشجار الذي حدث بينه وبين أخيه خلف اليونس حول الرحيل إلى بغداد. يومها تمسك خلف اليونس بفكرة البقاء في الريف فاختصما. استمر ذلك عدة سنوات لم يسأل خلالها أي منهما عن الآخر، ولم يتبادلا الزيارات أو الرسائل. تشبث خلف اليونس بالزراعة أول الأمر لكنه سرعان ما هجرها عندما تزوج من إحدى معارفه البعيدات غير أنه لم ينجب منها. يومها قال يائسا إنه لا يصلح لزراعة أية بذرة. بعدها انصرف إلى العمل وزأنا للغلال في موسم الحصاد. كان عليه أن ينتظر موسم كل عام حتى يعمل أياما معدودات، وما تبقى من العام يمضيه بين مقهى كئيب وبيت صامت. ومع تزايد المهاجرين وانخفاض مستوى الزراعة في الريف هبطت قيمة ما يحصل عليه من غلال أو نقود ولم تعد تكفيه للموسم الواحد، فضلا عن عناء العزلة والوحشة. كانا يجلسان وحدهما صامتيْن من دون أن يطرق بابهما أحد لاسابيع. يصغيان إلى وقع خطى المارة القليلين أو نداءات بائع جوال أو استغاثات متسول. لذلك كان يشغل نفسه بمساعدة زوجته فاطمة في رعاية البقرات التي لم يتبق منها سوى واحدة عندما قرر اللحاق بأخيه. تلك الأيام بعث اليه رسالة مع سائق سيارة لنقل المسافرين يخبره فيها برغبته في الإقامة في البلدة.

* * *

في ذلك العصر من آخر الصيف وصلت إلى بيت سلمان اليونس شاحنة كبيرة بعد أن توقفت عدة مرات للسؤال عن أسهل الطرق للوصول اليه. هبط منها خلف اليونس وزوجته فاطمة، فاستقبلهما الناس بالود والقبلات والعناق المتكرر، وساعدوا في إنزال البقرة التي هبطت بصعوبة من الشاحنة فيما كانت فاطمة تحذرهم من إيذائها. قادتها وهي تربت على كتفها قبل أن تعانق مكية الحسن وتقبلها عدة مرات. كان تفريغ الشاحنة من الأغراض عملا سهلا إذ لم تكن تحمل الكثير، وسرعان ما غادرت ببطء وهي تتفادى المارة والأطفال الذين تعلقوا بها من جوانبها مغمورين بالغبار والدخان الذي تخلف لحظة انطلاقها.

في باحة الحوش تواصلت عبارات الترحيب بفاطمة التي كانت قلقة على ترتيب احتياجات بقرتها تحت السقيفة، كانت ترد التحيات وهي تسقيها وتطعمها. وعندما انتهت احتضنت الأولاد وسألتهم عن اسمائهم، قبلتهم واحدا واحدا أكثر من مرة . تأملت علي ورأت في شبابه الطالع أملا يبعث على الاطمئنان، واستمعت إلى شكاوى مكية الحسن من عادة بنتيها وهي تضمهما تحت ذراعيها. وسرعان ما غفت مديحة تحت الأيدي الحانية فيما أخذت صبيحة تبحث عن حجر في الزوايا المعتمة.

بعد العشاء جاءت حليمة بصحبة عبدالحسين وطفليهما للترحيب بالمهاجرين الجدد. انضموا إلى العائلة في باحة الحوش تحت النجوم الخفيضة. حدثهم عبدالحسين عن أنباء الترحيل ورسم لهم صورة مزهرة عن المدينة الجديدة، عن الماء الصافي والكهرباء والمدارس والمستشفيات ورياض الأطفال فابتهج قلب علي لذلك وتخيل بيتا من الطابوق

والإسمنت، في احدى زواياه حمام يستطيع أن يغتسل تحت مياهه وقت يشاء. لكنه وهو يحاول أن يتابع وجه عبدالحسين المتوتر المحتقن الممتلئ حماسا لمشروع المدينة تذكر ذلك اليوم الذي أعقب الزفاف حين ذهب لزيارة أخته حليمة في بيت الزوجية.

كان الوقت ضحى. استقبلته عند الباب وأدخلته الغرفة فجلس على حافة سرير النوم. كان سريرا واسعا لم ير مثله من قبل، والمكان يعبق برائحة عطر، أدرك ظلال عبدالحسين في البيت من خلال أدوات الحلاقة وقطع من ملابسه العسكرية. جلس طويلا فيما كانت حليمة تتنقل من الغرفة إلى الباحة لترتب البيت وتهيء العجين استعدادا لخبز الظهيرة. تململ على السرير متكئا على الوسادة فأحس بشيء صلب تحت مرفقه، أزاح الوسادة قليلا فرأى خنجرا طويلا له غمد أسود فسألها عنه، قالت إنه لعبد الحسين يضعه تحت الوسادة منذ ليلة الدخلة. وحين استفسر عن السبب اكتفت بالقول: "هكذا يفعل الرجال". خاف من الخنجر الأسود، وأحس بأن من يحمله شخص شرير، واختلط مشهد العرس والفرح والبهجة والعطور بمشهد الأجساد المخضبة بالدم ولم يفارقه خيال الغمد الاسود لفترة طويلة.

انتبه علي للحديث الذي تحول إلى شجار بين والده وعبدالحسين بسبب مشروع الاسكان الذي يراه عبدالحسين وشيكا، وبالتالي لا حاجة لبناء غرفة أخرى للقادمين الجديدين. فما هي إلا أيام حتى يحصلا على بيت خاص بهم بعد حملة التسجيل التي تستعد لها السلطات. ويرى سلمان اليونس أن ذلك حلم بعيد المنال وأصر على وضع أساسات الغرفة في اليوم التالي بعد عودته من معمل الطابوق.

* * *

لم يدرك علي متى نام تلك الليلة غير أنه استيقظ فجرا على صوت متهدج لامرأة تبسمل قبل للصلاة. تذكر إنها زوجة عمه، فنهض من فراشه وخطف الإبريق ليسكب الماء على يديها البيضاوين النظيفتين. كانت تزينهما خواتم بفصوص دقيقة ملونة. لمح جبينها مطرزا بالوشم فوق الحاجبين وعلى حنكها الدقيق الذي كانت تسحب الماء اليه من الأعلى لتجفيف وجهها قبل ان يناولها المنشفة من داخل الغرفة الطينية.

بعد أداء الصلاة قدمت للبقرة طعامها وهي تكلمها بلغة خاصة. أخرجت معدات الحليب وعلي يرقبها باهتمام ويعرض عليها المساعدة. لم تكن تجيبه إنما تكتفي بأن تدعو الله أن يحميه ويحفظه لوالديه اللذين اتعبهما عناء الانتظارات الطويلة.

بدأت العائلة تنهض من نومها ما عدا سلمان اليونس الذي استيقظ بعد منتصف الليل بقليل وغادر إلى عمله عاقدا العزم على البدء بتشييد غرفة لأخيه.

ذلك الصباح أفاقت مكية الحسن نشطة فرحة بقدوم فاطمة وازدحام البيت، كما نهضت البنتان التوأمان مندهشتين من رؤية البقرة هادئة مستسلمة يقطر حليبها في سطل أبيض. تجمعوا حول فاطمة التي راحت أصابعها تداعب ضرع البقرة بمهارة ورقة تحت سماء بدأت تضاء شيئا فشيئا وتتبدد آخر نجومها المبعثرة فوق صفحتها الساكنة.

نهض خلف من فراش على الأرض، وداعب البنتين اللتين انشغلتا بالبقرة. لم يدم ذلك طويلا إذ انسحبت صبيحة إلى الوراء وجلست مسندة ظهرها إلى الجدار لتتسلل يدها إلى قطعة حجر صغيرة ألقت جزءا منها في فمها على عجل.

في ضحى اليوم الأول للقادمين الجدد أراد خلف اليونس أن يكتشف البلدة ويتعرف على ملامحها فطلب من علي مرافقته. هناك سوف يتعرف العم على السوق وعلى المسنين والعاطلين والمتسكعين، وعلى النشاطات الاجتماعية للجان محو الامية التي تشكلت من متطوعين متعلمين غالبا ما يأتون من خارج البلدة. لكن علي سيلتقي بأقرانه من طلبة المدارس الذين يمضون عطلتهم الصيفية في الطرقات أو الذهاب إلى بارك السعدون لاصطياد العصافير أو النزول إلى النهر وقت الظهيرة.

في المقهى حيث رصفت مصاطب تحت سقيفة طويلة ثمة رجال سمعوا ليل أمس بمجيء خلف اليونس فنهضوا لاستقباله وأحاطوه باهتمام درجت العادة عليه، وطلبوا له شايا وإذ خيّروا علي طلب زجاجة "كوثر". جلس على طرف المصطبة يحدق في يافطة على جدار المقهى المقابل كتب عليها شعار "الموت للاستعمار والرجعية" واحتار في تفسير الكلمتين الاخيرتين.

قبل أن ينشغل خلف اليونس بأنباء الترحيل والآمال التي تساور سكان البلدة أعطى لعلي ورقة نقدية. تناولها ودسها في جيبه دون أن يتطلع اليها وغادر متوجها إلى دكان "ابو يوسف". ذلك النهار اشترى لأول مرة قنينة دهن شعر خضراء غامقة عطرة من نوع "ياردلي" وهو يفكر ببدرية.

* * *

تحت سقيفة الحوش اجتمعت النسوة في الجوار في بيت مكية الحسن لتحية فاطمة. كن يشربن الشاي حين أطلت سعدة من خلف الجدار

الفاصل. عبّرت مكية الحسن عن امتعاضها همسا لأنها تعرف مسبقا أن سعدة سوف تعيد حكاية كل يوم ببطء رتيب، ستروي كيف يضربها زوجها فيما تكيل له الشتائم وتنعته بأبشع الصفات. لكنها ذلك اليوم تحدثت بسرعة وهي تتلفت ناحية بابها خشية أن يعود زوجها ويكتشفها وهي تشكوه إلى جاراتها عندها سيضربها ثانية وبقسوة أكبر. كان من عادته ان يضربها بالحزام حتى يزرق جسدها ويتمزق ثوبها ثم يجبرها على الا تغيّره إلى ان يقرر هو. تعاطفن معها أول الأمر متعللات بالصبر والقدر وحكمة الرب. وإذ طلبن منها ألا تعاند زوجها أو تجيبه بصلافة وافقت على ذلك، لكنها حين انسحبت إلى بيتها وغابت عن أنظارهن سمعنها تدعو له بالمرض والموت. عندها أخذن يتهامسن حولها ويصفنها بأنها وقحة، عنيدة، سليطة اللسان، وتستأهل كل ذلك الضرب. ذلك المساء جاء جارهم عريبي للسلام على ضيوف سلمان اليونس. وبعد أن تناول الشاي دعاهم إلى العشاء في اليوم التالي.

***

حين دخل علي الدار وجد أمه تفصد دم فاطمة في ظل السقيفة. كانت فاطمة تكشف عن كتفيها والجزء العلوي من ظهرها فيما تسحب مكية الحسن الدم بإستكان شاي. تقزز علي من المشهد وهاله منظر الدم واحتج فهتفت الأم: "فاطمة هي التي طلبت قالت إن دمها فاسد".

أعجبت فاطمة بمهارة مكية الحسن واقترحت عليها العودة إلى معالجة المرضى خاصة وأن ابنها مايزال في المدرسة وأن سلمان اليونس رجل مريض أنهكته معامل الطابوق. تأملت مكية الفكرة وقررت أن تبحثها مع زوجها بعد عودته.

تعلمت مكية الحسن معالجة المرضى الذين يعانون من تقرحات في أنوفهم وأفواههم ووجوههم على يد أمها التي أخذتها بدورها عن عجوز هندي مختص بطب الأعشاب. كان المرضى يأتون من أماكن قريبة أو بعيدة، ويقيمون في بيتها إقامة طويلة تمتد إلى أسابيع. وكان المريض يأتي برفقة أهله فتفحصه، ثم تبتسم إذا أحست أنها قادرة على شفائه وهي تردد "بعون الله". وبعد أن يغادر ذوو المريض تحتجزه في غرفة صغيرة طيلة فترة العلاج. هكذا يظل وحيدا لا يكلم أحدا غيرها. وخلال فترة علاجه كانت تقدم له طعاما بسيطا. وإذ يشفى، وغالبا ما يحدث هذا، تحصل على مكافآت عينية أو نقدية.

يتذكر علي العديد من المرضى الذين أقاموا في تلك الغرفة المعتمة التي حولتها أمه إلى مخزن للوقود إثر حادث مؤلم قررت بعده أن تكف عن معالجة المرضى. رأى علي أولئك الغرباء الذين يأتون إلى بيتهم شاحبين، قليلي الحركة، منهكين، ناحلين وصامتين. إنهم لا يتكلمون، وإذا تكلموا أشاروا إلى وجوههم أو قلوبهم أو رؤوسهم، إشارات كثيرة لا يفهمها أحد سوى مكية الحسن التي أتقنت منذ وقت مبكر أسرار تلك اللغة الصامتة وطقوس التطبيب وسحر الأعشاب.

في اثناء ذلك كان ذوو المريض يأتون للسؤال عنه ويطمئنون عليه من وقت لآخر. ولم تكن مكية الحسن تسمح لهم برؤيته عن قرب بل كانت تفتح لهم الباب فتحة ضيقة جدا لاعتقادها بأن هواء الخارج يفسد العلاج. هكذا يطلون على وجه المريض في عتمته ويحدثونه بعواطف مرتبكة. وأحيانا تنشج أمهات المرضى بالبكاء حين يبدو لهن الشفاء بطيئا أو مستحيلا. لكن ذوي المريض حين يتأكدون من فعالية العلاج

يأتون فرحين ومعهم صفائح السمن وأكياس الرز ويعودون بمريضهم الذي يتدرج بالنهوض من تلقاء نفسه ويتكلم ويبتسم، ثم تختفي لغته الصامتة وإشاراته، ويعبر بتواضع عن ثنائه وامتنانه من مكية الحسن.

ذات مرة عاد علي من المدرسة عصرا فوجد ثلاثة رجال متجهمين بشوارب كثة ومعهم شابة نحيفة لا تستطيع الوقوف على قدميها. كانت تغطي فمها وأنفها بفوطة فلم ير من وجهها سوى عينيها الصفراوين الذابلتين. سألتها مكية الحسن عن بداية إحساسها بالمرض فأشارت إلى أعماق فمها. فتحته مكية بكلتا يديها. تطلعت فيه عدة مرات، قلّبت بصرها في جنباته، ثم مدت سبابتها لتتلمس الحنجرة وتراجعت إلى الخلف. لم تبتسم هذه المرة لكنها كررت عبارتها "ستشفى بعون الله".

أنهضت الفتاة وأدخلتها الغرفة الصغيرة. أغلقت الباب، وغادر الرجال على أن يعودوا بعد أسبوعين.

ذلك اليوم طلبت مكية الحسن من حليمة أن تجلب معدات علاج بعض الأمراض من العطارين في سوق باب الشيخ: كيس حناء، زئبق، زنجفر، وجفت. وفي المساء طلبت عشر بيضات فصلت صفارها عن بياضها الذي وفرته للعشاء. أحرقت الصفار على نار البريموس الهادئة حتى تحول إلى سائل كثيف أسود، تركته حتى يبرد ووضعته في قنينة مغبرة. أعدت للفتاة التي ستمضي ليلتها الأولى حبيسة الغرفة حساء وأوقدت لها نارا. وعندما جلبت حليمة المواد من العطارين صنعت مكية الحسن كرات صغيرة من الزئبق والحناء والزنجفر. وضعت ثلاثا منها في الموقد وأمرت الفتاة أن تستنشق الدخان بهدوء بعد أن غطتها بإزار من صوف. وعند هبوط الليل وضعت في أنفها عدة قطرات من السائل الأسود الكثيف.

بعد أسبوعين ابتسمت الفتاة لاول مرة وتألقت عيناها، فخرجت من ظلام الغرفة إلى ضوء النهار. قدم الرجال الثلاثة المتجهمون لأخذها فكانت مكافأتهم سمكة كبيرة، لكنهم وعدوا بهدية ثمينة في ما بعد. وقبل أن تغادر طبعت فوق خد علي قبلة خاطفة.

كان من عادة ذوي المرضى الذين يشفيهم العلاج أن يزوروا مكية الحسن لإلقاء التحية عليها أو إيصال هدية صغيرة كلما مروا بالبلدة. وذات يوم، وكان الوقت عصرا، جاء الرجال الثلاثة المتجهمون مسلحين بالسكاكين الطويلة والخناجر والعصي. نزلوا من سيارة أجرة. طرقوا باب البيت بعصيهم طرقا عنيفا. وعندما فتح سلمان اليونس تلقى شتائم تطايرت من أفواههم المتشنجة المزبدة، وطالبوا بتعويض عن الفتاة التي عالجتها مكية الحسن إذ أنها توفيت بعد عام. وقبل ان يغادروا بالسيارة التي كانت تنتظرهم قالوا إن مجيئهم كان للتنبيه فقط، وإنهم سوف يأتون قريبا لأخذ التعويض، ولن يقبلوا بأقل من امرأة مقابل فقدان ابنتهم، وهددوا بالقتل إذا لم يستجيبوا خلال فترة قصيرة.

في منتصف الليل أفاق الجميع من نومهم مذعورين على أصوات الرصاص. نهضت مكية الحسن، ربطت عباءتها حول وسطها بسرعة. تناولت عصا وهمت بالخروج، غير أن سلمان اليونس اعترضها وأجلسها بعنف. وإذ سكتت أصوات الطلقات سمعوا سيارة تنطلق مبتعدة. تلك الليلة جلسوا حتى الصباح يجيبون على اسئلة الجيران الذين أيقظهم إطلاق النار واقترحوا على سلمان اليونس أن يبلغ عشيرته لتقرر في الأمر. وفي عصر يوم آخر التقى الرجال الاكبر سنا من كلا الطرفين وبحثوا القضية لأكثر من ساعتين. بعدها اعترف الطرف الضيف بالخطأ

الذي ارتكبه الرجال الثلاثة وعرضوا الإعتذار علنا أمام سكان البلدة. وخلال أيام جاء الرجال الثلاثة بملابس أنيقة واعتذروا من عائلة سلمان اليونس معتبرين موت الفتاة قضاء وقدرا. يومها قررت مكية الحسن أن تكف عن معالجة المرضى، وحولت الغرفة الصغيرة إلى حمّام ومخزن للوقود. لكن علي ظل لعدة سنوات يتذكر تلك الفتاة وقبلتها الخاطفة التي طبعتها على خده.

* * *

قبل أن تتوجه العائلة إلى بيت عريبي لتلبية دعوة العشاء دخل علي الغرفة ليستحم. كانت العائلة اجتمعت تشرب شاي العصر تحت السقيفة ماعدا البنتين التوأمين اللتين اختفتا في مكان ما. تنبهت مكية الحسن إلى غيابهما. كانت صبيحة في الخارج تتكئ على عمود الكهرباء وهي تقبض على كسرة حجر. حين رأت أمها أسقطته خلسة خلف ظهرها. لكنها تلقت تهديدا بالكي على يدها إذا لم تكف عن أكل الأحجار. سألت الأم المارة ما إذا كانوا رأوا مديحة في مكان ما. وإذ لم تتلق إجابة تريحها عادت بصبيحة وهي تمسكها من رسغها بقوة. كانت تقرصها وتسحبها سحبا خلفها فتتعثر صبيحة في مشيها وتتحمل الألم وتلوذ بالصمت. أسرعت مكية الحسن في خطوها لتفادي السيارة "أم الدخان" وهي تتقدم ببطء نحوهما تنفث كتل الدخان الأبيض التي تظل لفترة ليست قصيرة معلقة في الهواء فتشيع رائحة تشبه رائحة مواد التعقيم يتبعها حشد من الأطفال.

في الغرفة كان الماء يتناثر على جسد علي إذ يسكبه بطاسة ألمنيوم فيتجاوز الطست إلى الأرض المحيطة. وفكر بأنه سوف يتخلص من تلك

الطريقة في الإستحمام خلال الفترة المقبلة. ففي المدينة الجديدة سوف يبنون حماما، وسوف ينعش جسده كل يوم بالماء المتساقط من الدش، سوف يستحم وقت يشاء في الصيف ولن تكون هناك حاجة لتسخين الماء على نار البريموس في الشتاء. نشف جسده وارتدى دشداشة نظيفة مايزال عطر مسحوق الغسيل يضوع منها. مشّط شعره بعد طلائه بدهن "ياردلي"، واستمر يمشطه ويقلبه عدة مرات حتى استقر على شكل أخير، لكنه لم يكف عن مشاهدة وجهه في المرآة إلى أن خرجوا من البيت فربما تأتي بدريه حين تسمع أصوات المغنين تنطلق من بيت عريبي بعد العشاء.

في الزاوية اليسرى من الشارع، قبالة بيت سلمان اليونس، يقع بيت عريبي وأولاده الستة وزوجاتهم. بيت كبير تتجاور غرفه لتطل على ساحة فسيحة يقطعها حبل غسيل. وثمة غرفة منفردة خصصت للأم المريضة التي لا تنقطع اسئلتها عن أولادها حتى في ساعات عملهم المعروفة، خاصة في فصل الصيف، حين تقضي العائلة أغلب أوقاتها وهي تتنقل من ظل إلى آخر في باحة الحوش. ففي هذا الفصل تعد لها إحدى كناتها فراشا في ظل جدار وتتابع نقله من فيء إلى فيء كلما زحفت الشمس إليه حتى الغروب. هكذا تجلس في فراشها وتتطلع إلى الباب وتسأل عن أولادها. كانت أنجبت ستة عشر ولدا خطف الموت عشرة منهم. وها هي تسأل عن الاحياء، عن اللحظة التي يجتمعون فيها مساء بعد عودتهم من أعمال البناء. ذلك هو سر بهجتها وخوفها في الوقت نفسه. إذ أنها كثيرا ما كانت تتوقع حدوث أمر ما يجلب الشؤم منذ اليوم الذي اندلع فيه الحريق. لكنهم يصلون كل مساء متفرقين أو

مجتمعين. وفي ليلة الجمعة من كل أسبوع يعودون مبكرين، يتناولون عشاءهم وشايهم، وشيئا فشيئا يجذبهم والدهم عريبي إلى الغناء حين يبدأ النقر بايقاعات خفيفة متقنة على صينية الشاي، أو حين يدندن بصوت خفيض. كان صوت والدهم رخيما، لكنه يرى أصوات ابنائه أجمل وأعذب. لقد ورثوا عن والدهم جمال صوته إلى الحد الذي كان الناس في الجوار يعاملونهم كمغنين أكثر من كونهم عمال بناء لذلك كانت توجه اليهم دعوات لحضور أعراس أو حفلات ختان حتى من أناس لا تربطهم بهم معرفة وثيقة. لكنهم غالبا ما كانوا يلبون دعوات أصدقائهم وأقاربهم. كانوا مرحين، متعاضدين، مسالمين، لا يميلون إلى الشجار بين بعضهم، وإذا حدث مثل ذلك سرعان ما ينسونه باختلاق حفل غناء. لكن حين يعتدى عليهم فإنهم يواجهون الأمر بشجاعة.

أيام الصيف وقت العصر يرتدي عريبي ملابس بيضاء ويستعد لمجلسه. يتكئ على وسادتين عن يمينه ويساره. يحدق في الباب أو في السماء الفسيحة ويتسلى بحبات مسبحته من نوع "سندلوس" أهداها له ابنه الاكبر في أحد الاعياد. عند المساء تبدأ عودة الابناء فيمتلئ البيت صخبا ونشاطا ومرحا وتنطلق أقدام الزوجات برشاقة بين الغرف وباحة الحوش، يرتبن المجلس ويهيئن طعام العشاء على ضوء الفوانيس التي يعلقنها فوق أبواب الغرف أو على مقربة من المجلس. تتشابه الأيام هنا، تمضي بوتيرة مملة، لكن ليلة الجمعة ليلة إستثنائية إذ يبدأها عريبي بدندنة بصوت خفيض كما لو أنه يغني لنفسه، يغني لذكرى، لحكاية، لحنين، لحب قديم، لخيانة صغيرة، لهجرة أو إقامة. يرتفع صوته تدريجيا فتتجاوب معه إيقاعات ابنائه على صواني الشاي الفضية، وسرعان ما

ينتقل صداها إلى البيوت المجاورة فيهب الأولاد والفتيات ويتزاحمون عند باب البيت المفتوح دائما. وإذ يكتظ المكان يتدافعون إلى أمام ويزداد اللغط والشجار فيدعوهم عريبي إلى الجلوس في صفوف.

ذلك اليوم طلب عريبي من عائلته أن تهيئ مكانا لجلوس الأولاد وآخر للفتيات بعيدا عن المجلس. كنست الزوجات باحة الحوش ورششنها بالماء وهيأن الفوانيس فيما استعد عريبي لاستقبال المهاجرين الجدد. أنهضت إحدى الكنات حماتها ورتبت فراشها وأجلستها متكئة إلى الحائط. تلك اللحظة قدم سوادي حميد يحمل قالب ثلج على كتفه وأنزله فوق حصير وسط هتاف الزوجات وترحيب الأب. كانت البرودة تشل كتفه، فيما ظلت كفاه محميتين بقفازين من المطاط الأسود. ساعد الأبناء سوادي حميد في تكسير الثلج ووضعوه في صفائح ماء.

قدم الضيوف فاستقبلهم عريبي عند الباب. أجلس علي إلى جانبه فيما انفصلت البنتان التوأمان لتنضما إلى الزوجات اللاتي انشغلن بإيقاد الفوانيس.

تناولوا طعامهم مبكرا واحتسوا الشاي عدة مرات وهم يتبادلون أنباء المدينة الجديدة وموعد مجيء اللجان لإحصاء السكان. تساءل خلف اليونس بقلق عما إذا كان من حقه الحصول على بيت كالآخرين فأكد له الابن الأكبر أن لكل زوج وزوجة الحق بالحصول على قطعة ارض مستقلة. وأردف ضاحكا: "مجانا".

تبادلوا النظر إلى بعضهم كأنهم بذلك يدفعون والدهم الى المبادرة. أدرك الأب ذلك فتناول صينية الشاي وراح ينقر عليها بأصابعه الغليظة

الخشنة فاهتز الأبناء مشجعين. أعطى الأب إشارة البدء فانطلق صوت الابن الأكبر يتردد في أرجاء الحوش:

"عجزت من شيل هدمي مال متني
وعلي ضاكت الوسعه ما لمتني
لون تدري الوادم ما لامتني
على ذاك العذاب الصار بيه"

تناولوا الصواني من زوجاتهم، تطلعوا في الأصابع وهي تمس سطح المعدن الصقيل، فتصغي إلى بعضها وتتناغم في إيقاع واحد منتظم يساير الغناء ولا يتجاوز عليه:

"أكلمك أربع خمس كلمات
كلمات من كلبي (قلبي)
لالالا يا ناظري
يا ناظري يا حلوة البسمات" .

تلقفوا الكلمات، ورددوا وراء المغني بنفس الإيقاع الذي تحدثه الصواني والأصابع القوية الثابتة:

"لالالا يا ناظري
يا ناظري يا حلوة البسمات"

نقر متجانس نسجته الدربة والموهبة الطبيعية، نقر تهتز له الروح وتنتشي، تسرب الى قلب علي فسرت في جسده رعشة خفيفة. شمله الغناء بالشجن والعاطفة وراح يتطلع إلى الباب.

تسلّم الغناء صوت آخر وأنصت الجميع إلى إيقاع الصواني الذي غدا خفيفا ناعما لحظة التقائه بالأصابع الحارة وهي تهمس للمعدن فيستجيب لها في وهن رقيق.

"تميت أحومي عله شوفك بس أروحن وارد
أبغي وصالك واروم من المراشف ورد"

تناهت لعلي أصوات نساء. تفرس في الإتجاه المعتم ليتبين القادمات ولم يتأكد من وجود بدرية بينهن الا عندما حيّتها إحدى الزوجات وهي تناديها بدلع: "بدراو". التقط التسمية واختزنها في أعماقه التي ما لبثت أن أخذت تردد صداها ووقعها ورنينها "بدراو".

هبط الليل وحجب رؤية الوجوه لكنه ظل يتطلع في العتمة محاولا أن يتبين وجهها بين النساء.

الفصل الخامس

أخذت الغرفة التي بدأ سلمان اليونس بتشييدها لأخيه تعلو شيئا فشيئا. وبدت جدرانها عريضة سميكة كما لو أنها بنيت لتبقى إلى الأبد. عثرت فيها صبيحة على كنز من الطين الذي سرعان ما يتحول إلى أحجار صلدة تحت الشمس المحرقة، فيما غدت ظلال الجدران مأوى لمديحة تنام فيها وقت تشاء. الا أن البناء أجبر علي على البقاء في البيت فترة العصر من كل يوم فحرمه ذلك من فرصة التجول في السوق لذا كان يتمنى ان يبدأ الترحيل في أقرب وقت. بدافع عن فكرة المدينة الموعودة ورآها أمرا محتما فيثير بذلك غضب والده الذي كان يعتقد ان لا جدوى من التمسك بالوهم إذ أن عمر الحكومة الجديدة قصير معززا تصوره بالأنباء التي ترد إلى البلدة حول صراعات داخل السلطة، بين قادة الجيش أنفسهم، الأمر الذي أكدته محاولة اغتيال رئيس الوزراء.

ففي مساء من ذلك العام وفيما كان رئيس الوزراء يقوم بجولته الإعتيادية في شوارع بغداد أمطرت سيارته برصاص من أسلحة أوتوماتيكية من كل جانب فقتل السائق وجرح المرافق وسقط هو في حوض السيارة الخلفي ينزف من إصابة بليغة. كان من عادته أن يتجول بسيارته بصحبة السائق والمرافق فقط ويرفض الحماية من مفرزة

عسكرية. عندما سمع المارة إطلاق رصاص مباغت تفرقوا نحو الأزقة والطرقات الخلفية. تلك اللحظة مرت سيارة أجرة تعرف سائقها إلى سيارة رئيس الوزراء فنقله مع المصابين إلى المستشفى.

حين انتشر نبأ محاولة الاغتيال هرع الناس من كل مكان وغصت شوارع المدينة بجموع حاشدة تردد شعارات التأييد لرئيس الوزراء وحكومته. وفي البلدة تجمعت أعداد غفيرة في المقهى والسوق لمتابعة وضعه الصحي. وبعد أقل من ساعة بثت الإذاعة كلمة له تلاها بصعوبة. كان صوته ضعيفا جافا. بعدها أذيع بيان رسمي دعا المواطنين إلى الهدوء وأكد أن حالة رئيس الوزراء تبعث على الإطمئنان وأن إصابته ليست خطرة. لكن أعدادا غفيرة تجمعت أمام مبنى وزارة الدفاع. كانوا يهتفون بحياته مصممين على أن يروه بأنفسهم قبل أن يعودوا إلى منازلهم. في اليوم الثالث لإصابته أطل من شرفة مبنى وزارة الدفاع فاطمأن محبوه وتفرقوا. بدا سليما معافى لكنه كان يعاني من عدة جروح في كتفه الأيسر. وبقيت في عضده رصاصة استخرجت بعملية جراحية في وزارة الدفاع بعد خروجه من المستشفى بفترة طويلة. في أثناء ذلك لم يخلد للراحة، بل ظل يواصل عمله كالمعتاد يسأل عن كل شيء، يتابع، يناقش، يستقبل ويودع، حياة طبيعية كما لو أنه لم يتعرض إلى شيء، رافضا أن ترافقه مفرزة عسكرية مسلحة، مهملا أعداءه الذين كانوا يتحينون أية فرصة للإيقاع به: زلة لسان أو انفعال أو قرار خاطئ. ظل متسامحا، حتى أنه عفا عن معظم المشتركين في محاولة الإغتيال الذين ألقي القبض عليهم وصدرت ضدهم أحكام بالإعدام. وظل بسيطا في مأكله ومشربه ومنامه.

كان تحدر من عائلة كادحة فنشأ عصاميا مكافحا، وحين تبوأ أرفع منصب في البلاد لم يهتم بالمظاهر والشهرة والرفاه، بل إن حياته الشخصية تراجعت وتداخلت مع حياته العامة. كان ينام قليلا، وحين يشعر بالإرهاق يفرش بساطا على أرض مكتبه بوزارة الدفاع ويغفو. الشيء الجديد الذي طرأ على حياته هو أحلام اليقظة. كان كثيرا ما يطلق خياله حالماً بتحقيق مشاريع كثيرة، تعليم، صحة، ري، إسكان، طرق، مشاريع عديدة يفكر بها ليل نهار حتى يتحول رأسه إلى كرة من رصاص. لقد ترسخ لديه شعور عميق بأن شعبه الذي عانى من ظلم استمر قرونا، خاصة الفقراء منهم، لهو بحاجة اليه. هنا يخطر له سكان خلف السدة، ويستعيد ساعات زياراته العلنية والسرية لهم فيسارع إلى الأوراق ويبدأ بتخطيط مدينته. يخربش تصاميم وتكوينات بعضها واقعي وبعضها مجرد أمنيات كبيرة، ثم يرمي التخطيطات التي رسمها ليبدأ بالرسم من جديد، محتفظا بالإحصاءات الأولية التي لديه. كان اتخذ قرارا بنقل سكان البلدة إلى مدينة جديدة يتوفر فيها الماء والكهرباء والمدارس والمؤسسات الصحية كما يحلم بالضبط. مدرسة ابتدائية في كل حارة، ثلاث مدارس ثانوية، أربعة مستوصفات. كلا، أربعة لا تكفي، نبني أيضا مستشفى عاما يكون في منتصف المدينة. ثم يتوصل إلى تخصيص قطع اراض تبلغ الواحدة مئة واربعين مترا توزع مجانا، على ان تبنى بالطابوق. كما أن الأراضي لا تشمل سكان خلف السدة فقط بل جميع الراغبين حتى إذا كانوا من مناطق أو محافظات أخرى، المهم ان يسجلوا أسماءهم عند بدء الاحصاء. تلك الليلة، وقبل جولته المعتادة في شوارع بغداد، صمم على أن يعقد اجتماعا مع اللجان المختصة للشروع بالتنفيذ.

***

أدهشت فاطمة الجميع برغبتها بالعودة إلى الريف.

حاول زوجها خلف اليونس إقناعها بالبقاء والحصول على قطعة أرض خاصة بهما ومن ثم تشييدها وفق ما تريد، خاصة وان أنباء كثيرة باتت تصل إلى البلدة حول قرب البدء بتسجيل السكان تمهيدا للانتقال. لكن ردها كان قاطعا: "لا أستطيع تحمل هذا الجحيم".

خلعت أساورها الذهبية وأخفتها في صرة زرقاء. كانت أخرجت مصوغاتها الذهبية حين بدأت بيع اللبن والزبدة في السوق. يومها شعرت أن الذهب يضفي على يديها البيضاوين لونا براقا مدهشا أثار إعجاب الفتيات. ساعتها قالت إن من الافضل لها ان تقاوم الضجر بالاختلاط بالناس، وان جني قليل من المال يجعل إقامتها في بيت مكية الحسن اقل تكلفة. تلك الأيام بدت نشيطة حيوية على غير عادتها. تستيقظ فجرا، تتوضأ وتصلي ثم تحلب بقرتها وتعد لبنها. بسرعة مفاجئة كثر زبائنها، أحبوا منتوجها لطعمه وكثافته ورقة السمنة فيه، ثم لطريقة تعاملها الحميمة وبسملاتها ودعاءاتها التي لا تنقطع وهي تصب اللبن من شكوتها السوداء صافيا رائقا. لم تكن تمضي في السوق اكثر من ساعتين كل يوم. وبسبب ألقها المتدفق الاستثنائي تمكنت من التعرف على اغلب الباعة من النساء والرجال والصبايا، وغدت طلباتها من الجميع مستجابة. في البيت ترتسم على وجهها ابتسامة دائمة، وإذا ضحكت تطلق كركرات طفولية متصلة. قال زوجها انه "لم يسمع ضحكتها تلك منذ سنوات". لكنها تغيرت فجأة، تغيرت منذ اليوم الذي رأت فيه أفعى بيضاء تتجول بين أعمدة السقوف أو باحة الحوش أو تحت السقيفة. ما أدهشها هو أن لا احد يتقدم لقتلها. طلبت من علي أن

بفعل ذلك وهي تناوله مسحاة لكنه رفض قائلا إن أمه سألته أن يحافظ عليها فهي حية بيت غير مؤذية.

حين اكتشفتها مكية الحسن لأول مرة، وهي ترتب الافرشة داخل الغرفة الطينية، رشت مسحوق البطنج على الأرض خوفا من ان تكون سامة، لاعتقادها ان الافاعي تكره رائحة البطنج. وإذ لم تختف الافعى بعد مضي يومين قالت في نفسها: "يا حية البيت لا تضرينا ولا نضرك". هكذا عقدت معها حلفا فتركتها تتجول بحرية في ارجاء البيت، مستمتعة بهبوطها البطيء الزاحف أو المتدلي نحو الطعام الذي تقدمها لها: صحن حليب أو قشور بطيخ أحمر. ذلك اليوم قررت فاطمة الا تدخل غرفتها الجديدة حتى يتم تثبيت باب خشبي لها. انقطعت عن بيع اللبن، ورفضت اعطاء الحليب للأفعى، لكنها راحت تتابعها وهي تزحف بين الغرف أو سعف السقيفة أو في باحة الدار، وتراقب تغير لونها في الظل والضوء. كل ذلك يتم على مسافة بعيدة، فالاقتراب يثير أعصابها فتفقد السيطرة على غضبها، عندها يتحول لون وجهها إلى الاسود المزرق. أما كلمات التهدئة من زوجها وأخيه فكانت تدفعها إلى مزيد من الغضب. توترت علاقتها بمكية الحسن التي حاولت جاهدة أن تعامل ضيفتها بطريقة لا تضايقها. ذات يوم أحرق سلمان اليونس بذور الخردل إذ سمع أن دخانها يطرد الأفاعي لكن الأفعى كانت تمر قرب البذور المحترقة وتستمر في سيرها أو سكونها غير عابئة بشيء. مرة جلست فاطمة نهارا كاملا فوق صفيحة نفط فارغة على مسافة من الأفعى وبيدها مسحاة مصممة على قتلها حين تقترب منها فحدث شجار بينها وبين مكية الحسن التي قالت إن قتل الأفعى يجلب الشؤم، عندها اشترى سلمان اليونس خشب أشجار الرمان وأشعل موقدا كبيرا ثم رش الماء

على طرف منها فتصاعد دخان كثيف دفع الأفعى إلى الابتعاد عاليا نحو السقيفة ورقدت ساكنة بين سعفتين. اخذت فاطمة تحرق الحرمل كل مساء وتتبخر فيه كي لا تلامسها الافعى اثناء النوم. لم يكن بوسعها أن تنام نوما متصلا فالقلق يوقظها من حين إلى حين. تمنت لو أنها أنجبت لكان بكرها الان شابا تستطيع الاعتماد عليه ولطلبت منه أن يعيدها من حيث اتت دون انتظار قرار من زوجها أو أخيه ولما تحملت كل هذا العناء في بلدة غريبة. أهملت نفسها. لم تعد تحدد حاجبيها بالقلم الاسود أو تنظفهما بالخيط، ولم تعد تكلم مكية الحسن، وحين تشعر بأن عليها أن تفصد دمها تذهب إلى نشمية وتمضي معها عدة ساعات. حاولت نشمية إقناعها بالتحلي بالصبر معللة ذلك بأن المسألة مسألة أيام وتأتي لجان التسجيل ويتم الترحيل عندها تتخلصين من الأفعى ومن العُبء الذي تسببت فيه إقامتك لدى عائلة سلمان اليونس. قالت لها: "عليك أن تتحملي، لم يبق الا القليل، هم اهلك، ليسوا غرباء".

* * *

قبل أيام من شهر محرم اجتمعت النسوة في الجوار حول هاشمية التي فرشت بضاعتها فوق منديل كبير ملون. اشترت بدرية فوطة سوداء فيما ظلت نشمية تساوم على الدفع بالاقساط. كان لنشمية ثلاثة ابناء، اكبرهم كاظم. تزوج من امرأة في البتاوين وعمل سائق سيارة أجرة. وقدوري الأوسط الذي تزوج من قريبته هاشمية لكنها هجرته بسبب إدمانه الخمر. وحين طلقها استقبلت ذلك بترحاب قائلة إنها تخجل من ان تكون زوجة لرجل سكّير. استأجرت غرفة في باب الشيخ وأخذت تكسب عيشها من بيع العباءات والفوط والجراغد والجوارب النسائية. اما الثالث، وهو الاصغر فكان ثقيل السمع يدعى صادق، افتتح محلا

للنجارة في البلدة وظل عازبا طوال حياته يعاني من وحدة فرضها عليه مواطنوه حرصا على سمعة ابنائهم. تركت هاشمية النسوة يخترن الجوارب والفوط وانصرفت تدخن سيكارة من نوع "غازي". فكرت بتسجيل اسمها مع سكان البلدة علها تحصل على قطعة أرض تبني عليها غرفة لا يهتدي اليها قدوري وبذلك تتخلص من مضايقاته وزياراته المفاجئة المفزعة. هكذا ظل يلاحقها أينما تسكن حتى يعرف عنوانها فيهاجمها ويستولي على نقودها. كان يبتزها تحت التهديد وهي لا تستطيع ان ترد له طلبا خوفا على حياتها.

وقف علي قريبا من بدرية يختلس النظر إلى وجهها وهي تقلب الفوط والمناديل. ود لو يكلمها، ان ينطق اسمها كما يحب: بدراو، أن يقول أي شيء حتى لو كان مجرد فكرة بعيدة عن المدينة المنتظرة. ود أن يسألها أين سيلتقي بها هناك. هل توجد شوارع وأسواق وأعمدة كهرباء؟ ود لو يغني لها أغنية عبدالحليم حافظ (أول مرة تحب يا قلبي). هل سمعت بعبدالحليم حافظ؟ إنه مطرب مصري مثّلَ فيلم "الوسادة الخالية"، أهلي لا يسمحون لي بالذهاب إلى السينما. الأولاد الذين شاهدوا الفيلم بكوا من شدة تأثرهم بصوت عبد الحليم. هل تذهبين معي إلى السينما؟ نشاهد "طرزان"، و"الفارس المقنع". لا، لا، "الوسادة الخالية".

انتبهت بدرية إلى شروده ونظراته الساهمة. وبدلا من ان تبادله نظرة أو ابتسامة، كما كان يتمنى، سألته عن موعد بدء الدراسة. أحس بالخيبة والخجل فأحنى رأسه واستدار مسرعا نحو البيت ليجلس مع فاطمة التي لم تشجعه على الكلام، فيما كان صوت البريموس يطغى على كل صوت وفوقه قدر كبير يغلي. تناولت مكية الحسن دشداشة وألقتها في القدر لصبغها. ذلك العام فضلت ان تصبغ الملابس الملونة

بالأسود أو النيلي استعدادا لشهر محرم. قلّبت قطعة الملابس بغصن من خشب الرمان. وحين أدركت أن الدشداشة صبغت بالكامل أخرجتها ووضعتها على قطعة خشب مستوية وراحت تطرقها بالغصن ثم نشرتها على حبل خاص أعدته لهذا الغرض. حاولت أن تحدث فاطمة علها تعود عن قرارها بمغادرة البلدة فلم تجد موضوعا سوى إطراء الصبغة التي قالت إنها صناعة هندية.

- "الملابس الجديدة غالية، قلت أصبغ القديم، ليست اكثر من عشر قطع للبنتين ولعلي".

....

- "هذا النوع من الصبغ ثابت لا يتحلل بالماء عند الغسيل. سأطبخ رزا للعشاء، هل بقيت لديك زبدة؟".

....

ظلت فاطمة على صمتها طوال الليل، حتى انسحب ذلك الصمت على فترة العشاء التي مرت بهدوء.

وهو في استرخائه على الحصير وقت الغروب تذكر علي سوق باب الشيخ. كان يوم جمعة، ووالده يقوده من يده في تجوال هادئ عبر أزقة وطرقات السوق التي تنبعث منها روائح وعطور وتنفتح على محال خردوات، وأقمشة، وتبغ، وسجادات وسماورات أجنبية. ثمة خيوط، وحبال، وملابس، وأعشاب طبية لا يمكن حصرها. وهناك أيضا حركة دائبة في أزقة السوق والشارع الرئيسي الذي ينتهي عند الحضرة القادرية. ذلك الصباح رأى علي حلقة بشرية دائرية تتسع شيئا فشيئا حول رجل سمين يرتدي جلبابا رماديا، يشد وسطه بحزام جلدي ويحمل كيسا من قماش. فجأة يهتف الرجل:

- "اللهم صل على محمد وآل محمد".

ويردد الحشد البشري العبارة نفسها، ويتطلع الناس في الكيس وفي الساحة الدائرية الصغيرة التي يقف في وسطها. يصيح الرجل:

- "درهم، درهم بحب سيد المرسلين".

فيلقي المحتشدون بالدراهم وسط الدائرة ليلتقطها ويجمعها في صندوق خشبي قديم. يهتف الرجل:

- "كل واحد يتبرع بعشرة فلوس بحب الزهراء وسأريكم شيئا عجيبا".

يستجيب الحاضرون لندائه على الفور متلهفين لمشاهدة ذلك الشيء المدهش. يحاول علي أن يرى ما يدله على ذلك الشيء، يحدق مليا في جسد الرجل السمين، وفي الساحة، ثم في الكيس الذي يحمله. ليس ثمة ما يدعو للدهشة. الرجل يتصبب عرقا وعلي يحاول أن يثبت في مكانه حيث يزداد عدد الحاضرين في كل مرة يطلب فيها التبرع بالنقود.

- "هذه ليست نقودا بل حسنات أخي المؤمن، تبرع بعشرين فلسا لسيد شباب أهل الجنة".

هكذا يمضي المشهد حتى يمتلئ الصندوق الخشبي بالنقود فيغلقه ويتربع على الأرض ويطلق أدعية رافعا رأسه إلى السماء. لمح علي شيئا ما يتحرك في الكيس الذي يمسكه الرجل ويشد على فتحته بقضبة قوية. ينهض الرجل بشكل مباغت فيما يحاول علي التقدم إلى الصف الامامي كي يتمكن من رؤية ما سيفعله الرجل الذي قال بحياء هذه المرة:

"آخر طلب، درهم درهم، يشفي مرضاكم إن شاء الله".

ألقى نفر قليل بالدراهم في الساحة فخطفها بسرعة متناهية. أزاح الصندوق بعيدا عنه وصاح:

- "حين أفتح الكيس أرجو ان لا يتحرك أحد من مكانه".

فتح الكيس فتحة ضيقة صغيرة فتسللت منها أفعى سوداء رمادية البطن. زحفت أمامه رافعة رأسها كما لو أنها تريد استنشاق المزيد من الهواء. بدت كأنها شعرت بالخلاص من عتمة الكيس. همس الحاوي لها بكلمات غير مفهومة فتوقفت ساكنة حتى خيل لعلي أنها تنام. لكن الحاوي سرعان ما بدد تلك الفكرة:

- "لا تتصوروا أنها نامت، هي تراكم الآن، وتعرف تحركاتكم واحدا واحدا، أنظروا". تحرك شيئ آخر في الكيس الذي انفتح فاستدارت الأفعى ودخلت فيه، فيما أطلت أخرى برأس براق دقيق يتقدمها لسانها الراعش. دب الخوف في قلب علي فمال إلى والده محتميا به فطمأنه قائلا "إنها أفاع غير سامة لأنها منزوعة الانياب". تقدمت الأفعى الثانية. كانت بيضاء رقيقة تزحف ثم ترفع جسدها متكئة على جذعها. وهتف الحاوي:

- "اللهم صل على محمد وآل محمد".

فردد الحشد العبارة بأصوات عالية متنافرة. ثم همس الحاوي بكلمة سرية فتوقفت الأفعى عن الحركات البهلوانية وسكنت ثم انسحبت إلى داخل الكيس. وعلى عجل اخرج من جيب داخلي رزمة أوراق قال إنها دعاء ووزعها على الحاضرين، حمل صندوقه واختفى كالبرق بين رواد السوق وأزقتها الكثيرة تاركا الرجال المجتمعين في دهشة.

أيقظت مكية الحسن ابنها من غفوته على الأرض بجانب زوجة عمه فاطمة فاستوى واقفا يقاوم الرغبة في النوم، تسلق السرير الخشبي العريض وألقى بنفسه إلى جوار أختيه. نام الجميع تحت هبوب عذب فيما ظلت فاطمة يقظة حتى قبل موعد صلاتها بقليل تحدق في الزوايا المعتمة وتحت السقيفة بحثا عن جسم غريب. ومن حين لآخر تتفحص بقرتها لتطمئن عليها.

الفصل السادس

منذ العصر استعدت البلدة لاستقبال موكب عزاء باب الشيخ في أول زيارة يقوم بها موكب من المحلات المجاورة لسكان خلف السدة خلال الأيام العشرة الأولى من محرم. كانت ليلة سيظل علي يتذكرها لسنوات طويلة، ويتساءل متوجعا إن كانت بدراو أحست به قريبا منها، لا يفصله عنها سوى عتمة شفيفة بين أجساد هامسة متوهجة.

أغلقت الدكاكين مبكرا، ورفع المزيد من الرايات الخضر والسود فوق سقائف السوق والأكواخ والغرف الطينية الخفيضة. وسحبت البسطات إلى داخل الدكاكين لتوفير متسع أكبر للمشاركين في الموكب والمتفرجين. في نهاية السوق عند الجهة الأقرب إلى بيت مكية الحسن رشت الساحة بالماء وكنستها الأيادي الصغيرة للمتطوعين من الصبايا والأولاد . شاركت فيها مديحة قبل أن يداهمها النوم فوق بسطة أو صندوق خشبي أو زاوية. تسلق عبدالحسين أعمدة الكهرباء المتباعدة لسحب الطاقة وإيصالها في سلك طويل على إمتداد الطريق الذي سيسلكه الموكب الضيف. سرقة الكهرباء أمر مقبول في مثل هذه الأيام، عمل يكرّسه العرف وتقبله السلطات الحكومية. وبعد أن تنتهي مراسم إحياء ذكرى حادثة مقتل الحسين بن علي يتوقف سحب الكهرباء تماما،

تجمع الاسلاك وتحفظ لاستخدامات العام المقبل. في الشارع العام أوقدت نيران تحت قدور نحاسية ضخمة لإعداد الرز والقيمة لتوزيعه على المشاركين في الموكب بالدرجة الأولى ثم المتفرجين الذين سيشهدون العرض الطقوسي الاستذكاري، فإعداد الطعام جزء من تقليد قديم يتبرع فيه المقتدرون طلبا للثواب. قبل المساء بقليل خرج الناس من بيوتهم بملابسهم السود، وانتشروا في السوق والأزقة والشوارع القريبة. وحول القدور النحاسية تجمعت النسوة للمساعدة في غسل الصحون وتنظيف الحمص المجروش بأطباق كبيرة. الجميع هنا، من كل أطراف البلدة جاؤوا للفرجة أو للدعاء أو لطلب الأجر. خرجت عائلة سلمان اليونس ما عدا فاطمة التي جلست على الأرض امام البيت قائلة بامتعاض:

- "سأرى الموكب من هنا".

بين النسوة اللواتي يطبخن عشاء الضيوف رأى علي أخته حليمة ونشمية، وسعدة، وجسومة، وبدرية، وصبرية، وزوجات ابناء عريبي، وأخريات جئن من حارات بعيدة لم يلتق بهن من قبل. بدت بدرية كما لو أنها نهضت من نومها توا. كان وجهها شاحبا قليلا الا أن بياضه منحه سكونا أظهر عمق عينيها السوداوين اللتين تحاصرهما خصلتان بارزتان من شعرها البني. لكن جسدها بدا طريا وهي تتنقل من قدر إلى آخر وتتحدث إلى النسوة دون أن تلتفت اليه. لم يكن يسمعها، لكنه يتابع حركة شفتيها الزهريتين. كان صوتها يضيع في زحمة مكبرات الصوت التي انطلقت بقصائد الرثاء والمديح من آلة تسجيل كبيرة وضعت على بسطة دكان علوان بائع الطرشي.

تجمع أفراد موكب باب الشيخ أمام الحضرة القادرية. كانوا قدموا

من مناطق الفضل، الشيخ عمر، العوينة، الصدرية، الدهانة، والخلاني. انتظم ضاربو السلاسل من الشباب في صفين متوازيين تفصل بينهما مسافة أمتار كافية ليشغلها الطبالون والصناجون، ثم المشاركون من الأطفال وقد حملوا كتلا من سلاسل صغيرة بحلقات ناعمة، تليهم مجاميع اللطامين. يتقدمهم حامل المشعل الكبير الذي يحتوي على خمسة وعشرين مشعلا صغيرا ثبتت فوق خشبة طويلة يضعه رجل في حزامه العسكري. يرافق الموكب من أوله إلى آخره رجال يحملون مشاعل نفطية إضافية وآخرون يضيئون الطريق بنور اللوكسات.

إشارة الانطلاق بدأت من قارعي الطبول الذين بدأوا ايقاعا جنائزيا بعصي من الخيزران ذات رؤوس مدورة، تهبط برتابة موزونة على النقارات التي علقت برقابهم، يتبعهم ضاربو الصناجات الصفر النحاسية. وإذ تحركت الفرقة الأولى من الموكب لحقتها الفرق التالية ليبدأ ضرب السلاسل على الظهور وإطلاق الردات الشعرية بين مجموعة الشباب لاطمي الصدور.

قطع الموكب مسافة باتجاه سدة ناظم باشا. كان أثناء سيره المعتدل الهادئ ينضم اليه مشاركون جدد من الذين يسيرون على جانبي الموكب حتى إذا وصلوا إلى مدخل السوق اضطروا إلى تشكيل خطوط طولية كي يصبح بوسع الجادة استيعابهم. من حين لآخر كان حاملو اللوكسات يتبدلون، ويقوم حامل المشعل بعدة دورات حتى تقترب النار من رؤوس المشاركين والمتفرجين، فتنسحب رؤوس النسوة والأطفال إلى الخلف لتفادي اللهب، فيما يواصل لاطمو الصدور الضرب على إيقاع الردات التي يساهم فيها المحتشدون على الطريق، أمام البيوت والمحال

والدكاكين. حتى إذا اقتربوا من الموقع المقرر للوقوف في نهاية السوق المطلة على الساحة ارتفع حماس ضاربي السلاسل ولاطمي الصدور، وازدادت حدة إيقاعات الطبول والصناجات. فوجئ المشاركون في موكب باب الشيخ بالأعداد الغفيرة التي كانت تستقبلهم فشعروا بالفخر فارتفعت نبرة الإيقاعات والردات وضرب السلاسل، وأخذوا يستعرضون مهاراتهم أمام عيون الفتيات اللامعة في الضوء. حين توقفوا في الساحة انصرف حاملو المشاعل الصغيرة إلى ملئها بالنفط، فيما قام اثنان بإنزال المشعل الكبير وتزويده بالنفط الأسود ثم رفعه وتثبيته في الحزام العسكري لحامله، والمكان يضيق، حتى لم يعد هناك موطئ قدم لأحد. النسوة جهزن الطعام وتركن مسؤولية توزيعه إلى الرجال فيما انشغل آخرون بوضع المنبر في مكان مناسب. وبحركة غير متوقعة امتدت يد بدرية إلى علي وسحبته ناحيتها وهي تحاول اختراق الزحام واستقرت واقفة في فجوة دكان بحيث يلاصق ظهرها تختا مستويا فارغا. شعر علي بسعادة تغمر جسده كله، إذ فهم ذلك على أنه رسالة إهتمام خاصة له، له وحده. لقد اختارته. كانت منهمكة بمراقبة الموكب الذي بدأ يستعد للاستماع إلى قارئه إذ ينشد فصولا من قصائد رثاء. قالت بدرية:

- "علاوي اترك عباءتي كي لا تسقط، امسك يدي إذا تريد".

اجابها بصوت ضائع مخنوق:

- "كلا، سأتكئ على البسطة".

قالت وهي تقرّب وجهها منه:

- "الا تحب أن تمسك يدي؟".

أحس بانفاسها تلامس وجهه، وشم عطرا خاصا من شعرها، فدب

في جسده ارتعاش غامض أفقد ساقيه القدرة على الثبات. وتسللت يده إلى يدها. كانت دافئة خشنة. شعر بها كبيرة، بوسعها أن تحتوي جسده كله.

اعتلى القارئ المنبر، وتجمع حوله وخلفه عدد من حملة اللوكسات فاتضحت ملامحه في الضوء. كان يرتدي دشداشة سوداء وحزاما جلديا أسود ايضا. وإذ سُلط ضوء اللوكسات نحو وجهه كشف بقايا آثار مرض الجدري عليه. قرأ الشطرين الأولين من قصيدته ثم أعادهما عدة مرات كي يمكّن الحاضرين من حفظهما، إذ سيكونان القاعدة التي يعود اليها في نهاية كل مقطع. أخذ المتفرجون ينشدون معه وتقدمت جوقات اللطم واحتلت الساحة فلم يعد بوسع بدرية أو علي رؤية وجه القارئ الذي كشف سيطرة مبكرة على عواطف الحاضرين. استجابوا له ولإيقاع قصيدته وهو يعكس صدى الضربات على الصدور.

في الخلف، في الظلام، يصغي علي إلى ايقاع القصيدة وردات المشاركين ثم يصغي إلى الهمس الذي يطلقه جسده وهو يقترب من بدرية ويلامس عباءتها الناعمة. كان الطقس حارا والعرق يتصبب . مرة أخرى قرّبت بدرية وجهها من وجهه وقالت:

- "الدنيا حارة".

لا يعرف إن كان أجابها أم لا، ما يعرفه هو ذلك النسيم الأخاذ الذي تدفق من أعماقها، نسيم غريب كأنه قادم من ضريح مقدس في مكان ما من الكون. أراد أن يحتضنها من الخلف، فتراجع، ثم غيّر وقفته ليصبح أكثر قربا إلى الحد الذي لامست ركبته أسفل مؤخرتها. غاب علي في ذلك الهيام الصحراوي ولم يعد يرى أيا من الوجوه

المحتشدة حوله وأمامه، لم يعد يرى الطبول والصناجات والبيارق و[illegible]
الصاعدة والهابطة على الصدور بحركة دقيقة منتظمة. لم يعد يسمع
حتى صوت القارئ الذي فرض حضورا قويا على الجميع، حضورا لم
يسمح لأحد إلا بالاستجابة للإيقاع وعبارات الرثاء المشحونة بالعواطف
والأحزان. كان كالساحر بمقدوره أن يجعلهم يبكون، أو ينشجون، أو
يدفعهم إلى الإنضمام إلى المشاركين الذين أدموا صدورهم [illegible]
متواصل. بمقدوره أن يقودهم إلى ميادين القتال التي شهدت المعارك بين
جيش الحسين بن علي وجيش عمر بن سعد، أو يصغون إلى الحوارات
التي دارت قبل لقاء الجيشين غير المتكافئين، إلى الصبر والمكابدة والذل
الذي لحق بالسيدة زينب والنسوة الهاشميات أثناء سبيهن إلى بلاد
الشام. بمقدوره أن يأخذهم إلى مياه الفرات المحرمة، إلى الشفاه العطشى
والقرب الفارغة والخيام التي تلتهمها النيران كما يصورها النص المسموع
الآن. لم يكن علي يرى أو يسمع. بل كان يصغي الى شيء أقرب اليه
من كل ذلك: أزيز نيران داخلية تهاجمه من مكان ما وتدفعه إلى أمام
لتحرقه من أسفل قدميه حتى قمة رأسه. شعر أن بدرية تراجعت مسافة
قدم نحوه. هل تراجعت حقا؟ ضم ساقيه فأحس أنها ضمت ساقيها
أيضا. أدرك ذلك من التصاق ركبته بمؤخرتها أكثر فأكثر. ازداد
الحاضرون حماسا، فانفرط السكون المهيمن على المتفرجين حين أخذوا
يؤدون دور المشاركين عندها تكثف الضغط واشتد المكان ضيقا. ودون
أن يدري جاءت موجة دفعتهما معا ليجد نفسه ملتصقا بجسدها لكن
سرعان ما استعادت توازنها. ظل واقفا هكذا لعدة ثوان حتى أحس ببلل
يرطب ملابسه الداخلية. هل شعرت به حقا أم خيّل اليه؟ بعد لحظات

[illegible] من الحشد وابتعد خارج دائرته خوفا من رد فعلها، فربما أجلته إلى أي [illegible] فرصة مناسبة، وربما صمتت احتراما للخشوع الذي تبعثه واقعة [illegible] التي طالما آلمتها بأحداثها المروية في الكتب والمخطوطات.

* * *

في الأيام التالية تفادى رؤية بدرية في أي مكان يذهب اليه. والحق انه لم يخرج كثيرا من البيت للسبب ذاته. لكنه هرع عند سماع الأولاد يهتفون باسم "المبلّغ".

كان الشرطي جاسم معروفا في البلدة لدى الجميع، اشتهر بدراجته الهوائية السوداء صينية الصنع وبحقيبته الجلدية التي يعلقها في عنقه، كما اشتهر بإيصال قرارات أو إنذارات رسمية من مركز الشرطة أو المحكمة.

ذلك اليوم جاء المبلّغ يفتش عن مقر إقامة قدوري ولأنه لم يعثر عليه لجأ إلى بيت شقيقته جسومة لتسليمها قرارا باستدعائه لحضور المحكمة بتهمة الاعتداء على شقيقه صادق النجار.

أدهشت الدراجة الهوائية الأولاد، لكن ما خلب عقولهم اكثر من الدراجة نفسها هو المنبه المثبت في مقودها وزر التشغيل إلى جواره. تسابقت أيدي الأولاد للضغط عليه فصرخ بهم "المبلّغ" صرخة عالية، لكنهم لم يبتعدوا فحاول علي تفريقهم بإخافتهم بمسدس الشرطي المتدلي من حزامه. سمعت جسومة ضجيج الأولاد عند بابها فخرجت لمقابلة "المبلّغ" وهي تنفض عن عباءتها آثار تراب.

سألها الشرطي وهو ينظر في دفتره:

- "أنت جسومة أخت قدوري؟"

- "نعم عيني".

- "قدوري يسكن هنا ؟

عدلت من وضع عباءتها وقالت:

- "لا عيني"

خفت حدة ضجيج الأولاد عندما بدأ الشرطي بطرح اسئلته.

- "أين يسكن؟"

أجابت جسومة على اسئلة الشرطي بأنها لا تعرف شيئا عنه سوى إنه يقيم في الشوارع ويمضي وقته مخمورا، لكنه يأتي للمبيت عندها ليلة واحدة مرة كل شهر أو شهرين. عندها فتح الشرطي حقيبته وأخرج ورقة مطبوعة، وقال لها:

- "هذا تبليغ بأمر حضوره للمحكمة". ثم ناولها الدفتر وهو يشير إلى موضع وقال:

- "وقعي هنا".

بللت إبهامها بلسانها فيما خربش الشرطي عليه بقلم الكوبيا وحين أصبح الابهام ازرق قاتما مسكه الشرطي وضغطه على صفحة في السجل. انسحب الشرطي وهو يقود دراجته الهوائية، خطا عدة خطوات قبل ان يعتليها وسط صخب الأولاد وزعيقهم، الذين ما أن شاهدوا السيارة "أم الدخان" تقترب هرعوا نحوها ليغمروا أجسادهم في السحب البيض التي كانت تطلقها لتعقيم البلدة.

* * *

لا أحد يعرف محل إقامة قدوري، فهو منذ أن هجرته هاشمية أخذ يمضي معظم أوقاته في الشوارع الخلفية لساحة الطيران وحانات الباب

الشرقي والبتاوين متسكعا يحمل في جيبه ربع قنينة عرق يحتسي منها مباشرة دون مزج. حدث ذلك بعد أن أنهى خدمته العسكرية التي كانت مكية الحسن خلالها تستعير بيريته لتضعها فوق رأس علي حين كان صغيرا فيما تطلب منه أن يعلم الصغير المشية العسكرية.

غاب عن البلدة فترات طويلة. لم تعد تهمه طقوسها وأفراحها ومآتمها. ولم يتابع أخبار الترحيل، كأنه أراد أن يقطع تلك الصلة الحميمة التي كانت تربطه بحياة البلدة وتواريخها. حتى أمه نشمية لم تكن تعرف شيئا عنه، والحق أنها لم ترغب بمعرفة أي شيء عنه بسبب الإدمان لذا منعته من دخول بيتها.

حين يأتي إلى البلدة، لسبب ما وغالبا ما يكون الإفلاس، يسكن في بيت شقيقته جسومة القريب من بيت سلمان اليونس أو يبيت ليلته لدى اخيه صادق النجار. وإذا حدث أن جاءها، وهو يترنح تحت الضغط القاسي للكحول، يتبعه الأولاد من زقاق إلى آخر يطلقون عليه النعوت الأكثر بذاءة. كان دائما يضمر شرا مكتوما لا أحد يستطيع أن يتكهن بموعد انفجاره. وكان الأولاد يهاجمونه بنعوتهم وأهازيجهم ويهربون بعيدا ليختبئوا في الزوايا والمنعطفات حين يرد عليهم. وإذ يعاود سيره المضطرب بإتجاه بيت شقيقته يخرجون ثانية ليواصلوا الهتاف والشتائم أو رمي الحجارة عليه. عندها يتفجر غضبا ويهجم عليهم فيفرون أمامه كقطيع مفزوع، وإذ تنهار قواه يعاود سيره البطئ المترنح متكئا على الجدران. كثيرا ما كان يتشاجر، وغالبا ما يبدأ هو الشجار، فيضربه الآخرون دفاعا عن النفس لذلك لا يمكن رؤيته الا بضمادات أو كدمات أو كسور.

ذلك المساء لم تكن جسومة في بيتها عندما طرق الباب وهو يتمايل. كانت ذهبت منذ العصر لزيارة مرقد السيد جار الله، فواصل سيره حتى بيت شقيقه.

لا يشبه بيت صادق النجار البيوت الأخرى في البلدة، فهو دكان وبيت ومعرض لمنتجاته الخشبية في الوقت نفسه. إنه فسحة واسعة مفتوحة قبل نهاية الشارع المؤدي إلى السدة الثانية على مسافة قليلة من دكان حنون، الدكان الوحيد الذي يظل مفتوحا ليلا ينيره ضوء اللوكس. يجتمع أمامه الفتيان من البيوت المجاورة ينشدون الاغاني الوطنية التي تعلموها في المدارس أو يستمعون إلى الإذاعة، واحيانا ينصتون لقصة حب يرويها أحدهم أو يضحكون على مشاهد جنسية مختلقة. تلك الأجواء جذبت علي فذهب مرة إلى هناك، اشترى حلويات. تلك الليلة كانت الاذاعة تبث أغنية اشتهرت على نطاق واسع "هربجي كرد وعرب رمز النضال". وحين عرف والده بذهابه إلى الدكان نهره ومنعه من الخروج ليلا.

تشغل مقدمة الفسحة أسرّة وصناديق ومهود أطفال معروضة للبيع. ولأن الفسحة تقع على الطريق المؤدي إلى السوق يمكن مشاهدة المارة وهم يتوقفون، اثناء النهار، لإلقاء نظرة على تلك المنتجات أو يسألون عن أسعارها. حركة لا تنقطع إلى ان يحل الظلام. في آخر الفسحة بنى صادق غرفة صغيرة تحتوي على سرير وبعض الفرش تظلها سقيفة عريضة اتخذ زاوية منها مطبخا ومكانا للراحة ومتابعة الزبائن الذين يستعرضون منتجاته. في الزاوية المقابلة، في عمق السقيفة كانت هناك خزانة اعتاد أن يحفظ فيها طعامه، وضع عليها صورة لرئيس الوزراء. الصورة تواجهه أينما يكون، ينظر اليها باستمرار واحيانا يطيل النظر.

في أي مكان من الفسحة يمكن مشاهدة أكياس المسامير، المساطر، اقلام الرصاص، المساحج، الفؤوس، المبارد، علب الطلاء، المناشير، والكثير من أدوات النجارة الدقيقة الحادة. ومع أنه يدرك حاجته إلى صبي يساعده في عمله إلا أن أحدا لم يتقدم لطلب العمل لديه من الأولاد بسبب معارضة ذويهم للشغل مع رجل أعزب، لكنه يقول إنه لا يستطيع أن يدفع أجرة الشغيل لقلة أرباحه. عاش طيلة حياته، وحيدا، مسالما، يحب الآخرين دون أن يظهر ذلك، يساعد الذين لا يستطيعون دفع المبلغ المطلوب لمهد أو سرير. وأحيانا يذهب إلى بيوتهم لاصلاح قفل أو تركيب باب مقابل مبلغ بسيط. غالبا ما يمر على أمه نشمية وهو في الطريق إلى السوق مساء لشراء اللحم. كان من عادته ان يشوي اللحم وجبة لعشائه، كما يشتري لها ما يعتقد انها تحتاجه. هي بدورها كانت تسأل عنه أو تزوره وترسل له صحنا من طعام حين تعد طبخة خاصة، إذ تعرف أنه لا يحسن الطبخ الا شك اللحم في سيخ ووضعه فوق شبكة حديدية يوقد تحتها قطعا من خشب زائد. كان صبورا، كتوما، يسكت عن الاساءة، لكنه في الأيام الأخيرة ضاق ذرعا بسلوك أخيه قدوري وإبتزازه له. قبل فترة قصيرة لمحه وهو يسرق نقودا قليلة كان وضعها صادق على طاولة النجارة. وحين سأله إن رأى نقودا أنكر قدوري وأقسم إنه لم ير شيئا. سكت صادق ولم يخبر أحدا. لكنه ظل يتوجس من مجيء أخيه الذي يعطي لنفسه الحق في العبث بكل شيء، ويظل مخمورا يثرثر طوال الوقت، وفي أحيان كثيرة يسيء اليه ويهينه ويعتدي عليه. كان صادق كثيرا ما يتوقع مكروها منه لكنه لم يتصور يوما أنه سيطعنه بخنجر.

حين وصل قدوري وقت الغروب كان صادق يدخل الكراسي إلى السقيفة ويسحب الطاولات غير المكتملة.

قال قدوري وهو يجلس على أقرب كرسي:

- "أشو معزّل من وكت اليوم؟ ".

لم يسمعه صادق. قدم له سيكارة من نوع "تركي" وأشعلها. أخرج قدوري قنينة العرق وسحب جرعة، ابتلعها وشهق. حاول أن يتكلم. أحس أن لسانه ثقيل وشهق مرة أخرى.

- "عندك لحم؟ كوم اشويه. هاي اشبيك صافن ع الصورة؟، ماشايف عسكري، آني هم جنت عسكري بس شسوّي للزمان".

قرر صادق منذ البداية ألا يرد عليه. تململ في جلسته وهو يدخن. قال قدوري ساخرا:

- "صاير لي سياسي، معلك صورة رئيس الوزراء، بابا هذا مخّبل، إشبيه جمال عبد الناصرررر، ليش ما يتعاون وياه، اشبيه الطبقجلي، عسكري محنك، واشبيها سورية". أدار وجهه وأردف "صاير لي سياسي الاطرش ابن الاطرش".

احتقن صادق فرد بغضب:

- "يتآمرون عليه".

أخذ قدوري جرعة من القنينة متلذذا. أغلقها بصعوبة. وحين حاول إعادتها الى جيبه كادت تنزلق إلى الأرض، وقال بصوت عال:

- "يتآمرون عليه، هااااا؟ منو يتآمر؟ هو اللي يتآمر على الامة العربية، ليش ما يتوحد ويه مصر؟، ليش طرد رفاقه اللي شاركوه بالثورة؟ الاحزاب الوطنية. ها يابه، الاحزاب الوطنية كلللللللللها ما تريد الفوضى، وانت صاير لي سياسي، وين؟ بانصار السلام لو بالمقاومة الشعبية؟ لك يا مقاومة شعبية، يا بطيخ".

تابع وهو يفتح القنينة ويقدمها لصادق:

- "اشرب، اشرب عرك، لك العرك اكبر مقاومة شعبية. شويت اللحم، كثّر الملح، وإذا ما عندك جيب من جارك، هذا حنّون ابو الدكان اللي جان شايل لافته بعيد العمال".

نهض قدوري فجأة واقترب من الخزانة. اعتقد صادق انه يفتش عن اللحم. حاول قدوري أن يتوازن في وقفته أمام الصورة. ثم استجمع لعابه وبصق عليها بقوة. إستل خنجرا من جانبه وراح يمزقها. استبد الغضب بصادق. حاول أن يثنيه وقال له بصوت خافت:

- "ليش هيجي ليش، ابو الفقراء هذا".

رد قدوري بوجه اصفر ممتقع وعينين جاحظتين:

- "إنجب لك، إنجب أطرش، طرطور".

ازداد صادق حنقا، وصرخ:

- "اطلع برة".

ودفع قدوري أمامه. استمر يدفعه حتى أخرجه إلى الشارع. في هذه اللحظة سقطت كوفيته فانحنى ليلتقطها، عندها اخترقت ساعده ضربة خنجر، ضربة مباغتة جعلته ينكفئ على وجهه متعثرا. وحين تمالك جسده والتفت إلى الخلف لم يجد قدوري. كان اختفى في الأزقة المظلمة. نهض غير مصدق ما فعله شقيقه. حاول أن يلف موضع الإصابة بكوفيته لكنه لم يستطع، فتوجه إلى دكان حنون. أسعفه الشبان المجتمعون حول الراديو. في اليوم التالي أقنعه بعض رجال البلدة بتسجيل دعوى ضد أخيه في مركز شرطة باب الشيخ.

منذ تلك الليلة لم يعد قدوري إلى البلدة، ولم يظهر في شوارعها أو أزقتها الا بعد أيام من إنقلاب دفع البلاد كلها إلى حافة الهاوية.

الفصل السابع

بغياب فاطمة وخلف اليونس والبقرة بدا البيت خاليا موحشا. أحست مكية الحسن بفراغ كبير. وبرغم شعورها بالارتياح لتحقيق رغبة فاطمة بالعودة إلى الريف الا أنها بكت، بكت أكثر من مرة خصوصا حين استمر المشترون، الذين لم يعلموا بمغادرة فاطمة، بطرق بابها طلبا للحليب. حدثت نفسها بصوت مسموع: "كان عليها أن تصبر قليلا". حتى إذا صبرت وسجلت اسمها وحصلت على قطعة أرض من أين لها المال الكافي لبنائها؟ وماذا سيعمل خلف اليونس؟ لقد أمضى الرجل القسم الاكبر من حياته وزانا لغلال الفلاحين ماذا سيعمل في المدينة؟" وترد على نفسها بحزم: "يعمل أي شيء، الرجل يعمل أي شيء. ها هو مسعود ألم يعمل فراشا في مستشفى الهلال الاحمر؟ ألا يستطيع خلف ان يعمل فراشا؟ هل يحتاج ذلك إلى شهادة؟ خلف يقول انه لا يستطيع، ويعدد عشرات المهن البسيطة التي ليس بمقدوره القيام بها. مثل أخيه، لا يحسن غير العمل في معامل الطابوق، أفنى عمره في معامل الطابوق مقابل حفنة من تراب. لماذا جاء خلف إلى المدينة؟ لماذا تحمل كل ذلك العناء؟ عبء البقرة وعبء فاطمة وغضبها ونزقها ونظافتها؟". كان يسايرها ليس لأنها بيته ومأواه كما يقول إنما لأنه لا يحسن أداء الأعمال

المتوفرة في المدينة لرجل مثله. هكذا ارتضى العودة إلى موطنه، إلى الحقول والحياة الرتيبة الخالية وانتظار موسم الغلال، العودة إلى المقهى والسوق والعزلة الابدية.

أصبح البيت خاليا. كل شيء يذكر بها: الأفعى، الزبدة، الحليب، موضع البقرة، خوارها، غرفتها الجديدة، بقايا العلف، والخبز والنخالة، يقظتها المبكرة التي ترافق يقظة شغيلة معامل الطابوق، بسملاتها ودعاءاتها المتواصلة، غسل يديها وقدميها ووجهها الذي يستغرق وقتا طويلا، ضحكتها حين تفرح، متابعتها لصبيحة ومعاملتها كامرأة ومحاولاتها لدفعها إلى الإقلاع عن أكل الاحجار، فالرجل لا يهوى امرأة تأكل الطين. هكذا قالت لها. بكت صبيحة، بكت مديحة، بكى علي لأن بدرية لن تأتي بعد اليوم لشراء الحليب. قبلتهم ووعدتهم بأن تأتي لزيارتهم في المدينة الجديدة. قالت إنها سوف تقضي صيفا كاملا معهم. دمعت عينا خلف اليونس وهو يودع شقيقه. مسح عينيه بطرف كوفيته وانحنى يقبل رأس مكية الحسن: "أصيلة أم علي". كان خجولا، يربكه الوداع، ويربكه اللقاء. تجمعت حولهما النسوة في الجوار. جاءت نشمية، وجسومة، وبدرية، وسعدة، وحليمة. وحين ابتعدت بهما سيارة الحمل برز فراغ مديد تكثف امام باب البيت، المكان الذي اعتادت فاطمة الجلوس فيه وقت العصر. ها هو وقت العصر، وقت جلوسها أمام البيت. لكنها لم تعد هناك.

* * *

بعد شهور وصلت لجان التسجيل إلى البلدة وانتشرت في جميع ارجائها. استغرق العمل أسبوعا تم فيه تسجيل اسماء أرباب الأسر وإحصاء بيوتهم وأكواخهم وصرائفهم، كما تم تثبيت اسماء القادمين من محلات أخرى: باب الشيخ، الصرافية والكرنتينه، أولئك الراغبين

بالانتقال إلى المدينة الموعودة خصوصا بعد أن عرفوا أن قطع الاراضي سوف توزع مجانا. ابتدأ افراد اللجان عملهم من الأطراف نحو المركز يساندهم أفراد الشرطة وعدد كبير من المتطوعين الذين يساعدون في نقل الدفاتر الاضافية والأقلام وعلب الطلاء من مراكز ثابتة اتخذت من المقاهي وحنفيات الماء والحلاقين مواقع لها. كان المتطوعون يتغيرون ويزداد عددهم كلما توغل أفراد اللجان داخل البلدة. وهم في تجوالهم بين البيوت كان الأهالي يوفرون لهم الطعام والماء المثلج. كانوا يرتدون خوذا من ذلك النوع الذي يعتمره الفرسان، أو يضعون مناديل فوق رؤوسهم يبللونها بالماء من وقت لآخر لتخفيف حرارة الطقس اللاهبة. تلك الأيام اشترى عبدالحسين دراجة نارية قديمة وضعها في خدمة اللجان، يتنقل فيها كالسهم من مكان إلى آخر، لذا يمكن ان تراه في مواقع مختلفة من البلدة في دقائق معدودة. كان يساعد في كل شيء حتى في نقل رجال الشرطة، يرافقه أولاد استأجروا دراجات هوائية يدورون بها في الشوارع والأزقة والساحات الضيقة ما اضفى جوا احتفاليا استثنائيا على البلدة اخترقه سوادي حميد وهو يقرع الطبل ويسير في الطرقات متبوعا بجوقات الأولاد والصبايا من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع.

ظهر كنيِّز وحوله الأولاد يقرصونه من مؤخرته ويسحبون كوفيته إلى أسفل دون أن يكترث لهم، إنما كان منشغلا بتثبيت سلة "الباسورك" المملح على كتفه، ثم عقاله الرفيع فوق رأسه. كان سعيدا بتجمعهم حوله والسير خلفه وهم يصفقون ويغنون. يسكن كنيِّز في كوخ بأحد أطراف البلدة، يخرج صباحا ولا يعود الا في الليل. يجوب طرقاتها بانتظام حتى غدا من أبرز علاماتها. إنه موجود في كل مكان، يظهر فجأة في أية ساعة، يمشي طوال اليوم. الوقت الوحيد الذي تراه جالسا أمام سلته هو

وقت المساء حين يتخذ زاوية له في ساحة السوق بعد ان يكون قد تعب من طوافه النهاري. في شبابه توفيت زوجته قبل أن تنجب ولم يتزوج بعدها. اشتهر بتقليد اصوات الكلاب وشجارها فيثير ضحك الكبار والصغار. يضحك دائما، ويمزح دائما كأنما كان يعادل بذلك كآبة حياته وبؤسها وفراغها. كنيّز لا يؤمن بالتغيير، بالنسبة له الحياة تمضي هكذا في وتيرة واحدة ومع ذلك كان أول من سجل اسمه في الصباح الباكر أملا بتغيير ما. يضحك كنيّز، يضحك كثيرا، يضحك طوال اليوم، يمزح ويروي قصصا وطرائف تفرح الأطفال والنساء اللاتي يعبرن أحيانا عن شعور بالضيق من مزاحه الثقيل مع أنهن يتعاطفن معه لفقدانه الزوجة والذرية، ويضحكن في سرهن حين يحكي نكاتا أو يقلد لحظات جنسية للحيوانات.

انضم كنيّز إلى جوقة سوادي حميد فاضاف عددا كبيرا من الأولاد الذين ساروا في حلقات ترقص على ايقاع الطبل. ينزل كنيّز سلة "الباسورك"، يضعها جانبا فيما يفسح له الأولاد متسعا ليؤدي رقصته الخاصة. يخلع عقاله وكوفيته فيظهر الشعر الرمادي طويلا وقد ترطبت سوالفه بالعرق، يحني صدره ويرفع يده اليمنى إلى جانب رأسه وتهبط اليسرى إلى فخذه، يحرك جسده حركة نصف دائرية خفيفة فيتدفق السرور في قلوب مشاهديه. ينهي كنيّز رقصته بضحكة طويلة تكشف أسنانه التالفة، يزداد وجهه احمرارا من فرط الانفعال وحرارة الطقس.

آخر النهار جلب عبدالحسين صورة جديدة مزججة لرئيس الوزراء وهو يبتسم ويرفع يده بالتحية. علقها في الغرفة التي سكنتها فاطمة والتي لم يشغلها أحد منذ اليوم الذي غادرت فيه.

حين وصل فريق التسجيل إلى بيت مكية الحسن، يرافقهم عبد الحسين، سجل سلمان اليونس اسمه دون ان ينظر إلى صهره الذي تظاهر

بالانتصار عليه إذ ان سلمان اليونس ظل يعتقد حتى قبل مجيء اللجان بيومين بأن الترحيل لن يحصل وأن قدرهم هو في تلك البقعة التي خطها لهم أجدادهم المكتشفون الأوائل. كان واثقا من أن رئيس الوزراء يعمل من أجلهم ويفكر بهم لكنه يرى أن حجم المشكلات التي يواجهها أكبر من طاقته على استيعابها. تلك الافكار تلقاها من احد عناصر نقابات العمال الذي جاء إلى معامل الطابوق والتقى شغيلتها أكثر من مرة لشرح عمل النقابة وفوائده. نظروا اليه باحترام ليس فقط لأنه جاء ليفهمهم معنى حقوقهم وكيف يجب أن يدافعوا عنها وينتزعوها انتزاعا، إنما لأنه كان احد نزلاء معتقل خلف السدة. أحس سلمان اليونس يومها أنه قريب من المعتقلين، ينامون إلى جواره، عند خاصرة البلدة ولكن وراء القضبان. اليوم جاء التغيير، وأطلق سراحهم، وأصبح المعتقل مجرد بناء ضخم ميت. قبل ذلك كان يراهم كل يوم، عند عودته من معامل الطابوق، يتجولون خلف الأسلاك الشائكة، يتدفأون باشعة الشمس وقت الشتاء متلفعين بمناشفهم أو ينشرون ملابسهم على الأسيجة، وأحيانا يلعبون كرة القدم.

كانت مكية الحسن تخبز الأقراص الاخيرة في التنور لذا دعت فريق التسجيل إلى الاستراحة وتناول الطعام وقت الضحى. غسلوا وجوههم وشربوا ماء مثلجا. رموا خوذهم على الأرض وجلسوا تحت السقيفة. قدمت لهم خبزا ساخنا وتمرا وخيارا ثم تناولوا الشاي اكثر من مرة. وحين أرادوا استئناف عملهم ابتداء من بيت سعدة مرورا بصادق النجار وانتهاء بالسدة الثانية طلب علي منهم قبوله متطوعا. هل كان سيمضي يومه يجوب الطرقات إذا علم ان بدرية انضمت، مع مجموعة أخرى من النساء اللاتي تركن دكاكينهن شبه مغلقة ولحقن بسوادي حميد في مسيرته الايقاعية؟ كان علي يأمل في أن يسلك فريق التسجيل الدروب

المؤدية إلى بيتها لكنهم اتخذوا طريقا معاكسا تماما الامر الذي افقده فرصة رؤيتها ولو من بعيد. هل كانت تعرف انه هناك، في مكان ما من البلدة؟ هل لحقت بجوقات سوادي حميد ومجاميع الأولاد التي تجري خلفه لتفتش عنه بينهم؟ هل فعلت ذلك عن قصد؟

ذلك اليوم جاءت هاشمية إلى البلدة في وقت مبكر حاملة بضاعتها على رأسها. أقامت مع نشميه وسجلت اسمها أملا في أن يكون لها بيت خاص بدلا من الايجار في باب الشيخ. ثم انها ستكون قريبة من معارفها الذين سينتقلون إلى أرض أخرى.

بعد ان غادرتهم لجان التسجيل لمواصلة مهمتها فرشت بضاعتها امام بيت سلمان اليونس. ذلك اليوم باعت أكثر من أي يوم آخر ما جعلها تتفاءل بالأيام المقبلة، حتى أن مكية الحسن اشترت لأول مرة عباءتين وفوطتين لبنتيها التوأمين.

وكالعادة تجمعت حولها النسوة في الجوار. ذلك اليوم تضاعفت اعدادهن إذ سمح ازواجهن لهن بمغادرة منازلهن في مناخ يوحي بحفل جماعي للبلدة، وحدها حليمة لم تكن بينهن. كانت إلى جانب ابنها الثاني في مستشفى الهلال الاحمر.

ها قد مضى اسبوع ولم تتحسن صحته من مرض مجهول أعجز الأطباء فتركوها في قاعة بيضاء طويلة تنظر إلى وليدها بعيون يغمرها الدمع والالم، وحدها مع الطفل في السرير وإطلالة مسعود الفراش أثناء عمله النهاري، أما في الليل فكانت تمضي الساعات وهي تنحني على السرير فتغفو أحيانا، تغفو ثم تفيق فجأة لكي تتأكد من أنه لايزال على قيد الحياة. لكنها تطمئن حين يعمل مسعود في النوبة المسائية التي تنتهي صباحا إذ تشعر أنها ليست وحدها في مواجهة الصدمة خوفا من الليل والطريق.

تذكرت مكية الحسن ابنتها وحفيدها فاستبد بها القلق. ندمت على تطوع علي للعمل مع فرق التسجيل، وتمنت لو أنه ذهب لزيارة أخته بدلا من ذلك. لكن عبدالحسين الذي عاد على دراجته النارية بعد حلول الظلام طمأنها بأن صحة الطفل مستقرة وانه وفر لحليمة احتياجاتها، قال ذلك وعاد إلى منزله مسرعا. كان كئيبا، متعبا وشارد الذهن.

صباح اليوم التالي ظهر مسعود الفراش أمام بيت سلمان اليونس يحمل الطفل ملفوفا ببطانية خفيفة تبرعت بها إحدى العاملات في المستشفى. تلك اللحظة بكت حليمة. كانت طوال الطريق صامتة. تتناوب مع مسعود على حمل الطفل. كان الطريق طويلا، ثقيل الوطأة، والبلدة تقبل على يوم جديد. ثمة عدد من المارة المتوجهين إلى أعمالهم في المدينة، وكانت هي صامتة إذ أرهقها البكاء طوال الليل. بعد ساعتين من مغادرة عبد الحسين توفي الطفل، فكان عليها أن تخرج لكن إدارة المستشفى، بوساطة مسعود، سمحت لها بالبقاء حتى الصباح.

بكت مكية الحسن وهي تتذكر أولادها الذين فقدتهم. تذكرت سنوات الالم والاحزان التي عصفت بها والتي اعتقدت أنها لن تعود ثانية. بكت على أولادها وعلى نفسها وعلى زوجها الذي أخذ وجهه يشحب وينحل يوما بعد يوم، وجسده يذبل وينكمش تحت ضغط قوالب الطين والحجر والنيران. كان جسده ينصهر من لهيب الفخار. تكاثر عدد النسوة اللاتي سمعن الخبر، وازدحم بهن البيت، وهب الرجال لمواساة مكية الحسن أكثر من مواساة حليمة. وعلى الدراجة النارية وضعوا الطفل في حضن علي. وانطلق بهما عبدالحسين صوب "اليشان" لدفنه.

* * *

شرق بغداد، في تلك البرية الشاسعة الممتدة بين معامل الطابوق وبعقوبة مرورا بخان بني سعد ستقام المدينة الجديدة. رئيس الوزراء لايزال على وعده في توزيع الاراضي على سكان الصرائف، رغم مشاغله الكثيرة، رغم معارضيه من دول واحزاب وشخصيات وشركات ترى في وجوده خطرا على المنطقة برمتها. لكنه استمر يعمل ليل نهار معتمدا على الجيش. كان يعتقد أن لا فرق بين الجيش والشعب، فالجنود والضباط هم ابناء الشعب. يحلم كثيرا، معتمدا على حب الناس له، حتى يستغرق في الاحلام، في التفكير باسرع الوسائل لتخفيف معاناتهم عبر المشاريع والقوانين والاصلاحات.

اكتمل الطريق الذي سيربط بين المدينة الجديدة التي اطلق عليها اسم "مدينة الثورة" وبين ساحة الطيران بعد أن ازيل الجسر الحديد، وردم جزء طويل من "شطيط". أصبحت البلدة تتصل بالشارع مباشرة قبل أن تتصل بباب الشيخ وبساحة الطيران. وقتها كشف ان المدينة الجديدة ستمتد إلى ما وراء قناة الجيش التي تربط بين نهر دجلة ونهر ديالى، والتي افتتحتها رئيس الوزراء مؤخرا والقى كلمة اكد فيها عزمه على اكمال المشروع وتوفير التعليم والخدمات لسكانه.

وفي يوم ما بدت ملامح المدينة بالظهور. اتضحت من بعيد منارة جامع سيد حسين مقابل دور الموظفين، الدفعة الأولى من مشروع رئيس الوزراء على أمل يجري بعدها توزيع الأراضي. أطلق على ذلك الجزء من المدينة اسم "الثورة الأولى"، وهكذا كلما اكتمل جزء يطلق عليه اسم خاص به، فيما ظل سكان البلدة ينتظرون الخلاص من الزحام والعتمة والنفايات واللصوص. لكن ذلك الخلاص لم يعد قريبا بعد الحدث الذي هز البلاد كلها وترك عليها آثارا دامية ظلت ماثلة في الذاكرة لعدة عقود.

الفصل الثامن

في ذلك الفجر الرمضاني كان علي يتجه نحو مركز تجمع عمال البناء في ساحة الطيران حين قطعت الطريق عليه مفرزة عسكرية. تلك الأيام اشتد مرض والده سلمان اليونس إلى الحد الذي أقعده عن العمل فاضطر علي إلى ان يتغيب من المدرسة كي يساعد عائلته، ثم انتقل بعدها إلى الدوام في المدارس الليلية.

توقف مندهشا وتطلع حوله. كان هناك رتل من الدبابات قادم من جهة ساحة التحرير يندفع نحو موقع خزان الماء الضخم، فيما انتشرت بسرعة فائقة مدرعات يتخذ الجنود الذين على ظهرها وضعا قتاليا. فجأة خرج جنود من مكان ما من الساحة وتوزعوا في الزوايا والمنعطفات ومداخل الشوارع القريبة المؤدية إلى الساحة: شارع الكفاح، شارع الجمهورية، شارع النضال، فيما قام قسم آخر بصد الناس الذاهبين إلى اعمالهم طالبين منهم العودة إلى بيوتهم. توجس الناس شرا فانسحب قسم منهم فيما ظل قسم آخر يحاول معرفة ما يجري فوقفوا فوق سدة ناظم باشا. مرت فوق رؤوسهم طائرات مقاتلة كانت تحلق على إرتفاع منخفض، وبعد دقائق شاهدوا كتل دخان في سماء بغداد، لكنهم لم يتمكنوا من تحديد المواقع التي تنبعث منها.

في طريق عودته سمع علي دوي انفجارات خلفه واصوات طلقات نارية متفرقة، وشاهد ثلاث طائرات تخترق فضاء المدينة. في سوق البلدة وحاراتها وشوارعها تجمهر الناس يسألون المارة العائدين الملثمين من البرد ثم يتساءلون فيما بينهم. ولم تمض ساعات قليلة حتى أدركوا أن هناك انقلابا يجري ضد رئيس الوزراء. وحين سمعوا بيان الانقلابيين من الإذاعة، ميزوا بين الاسماء، فرأوا فيهم رفاق الامس. وما هي إلا لحظات حتى اندفعوا إلى شوارع بغداد حاملين السكاكين والبلطات والخناجر والعصي لمواجهة الدبابات والمصفحات التي وجهت ماسوراتها نحوهم. وفي ساحة الميدان، وباب المعظم، وشارع الرشيد التحموا مع جموع غفيرة أخرى خرجت لمواجهة الانقلابيين باسلحة بدائية.

حين قصفت طائرات الانقلابيين وزارة الدفاع كان رئيس الوزراء في بيته فانطلق على الفور إلى هناك عبر شارع الجمهورية لكنه لم يتمكن من الوصول. كان الشارع مكتظا بالناس الذين خرجوا لنصرته والدفاع عنه وهم يحملون صوره ويطالبونه بتزويدهم بالسلاح ويهتفون له. وإذ رأى الانقلابيون ذلك أخذوا يرددون الهتافات له وسط المواطنين ليوهموهم بأنهم من أنصاره، ووضع آخرون صوره على واجهات الدبابات التي تتقدم نحو مكتبه في وزارة الدفاع. ومع تقدم النهار ازداد دوي الرصاص في مناطق مختلفة من المدينة ووقعت اشتباكات عنيفة بين الانقلابيين والمدافعين عن الحكومة. وفيما كانت برقيات التأييد، وبعضها مزور، من قيادات الفرق العسكرية والالوية تبث من الإذاعة كانت تطلق الاناشيد بين برقية وأخرى. اصغى علي لأول مرة إلى صوت كارم محمود وهو يردد "أمجاد ياعرب أمجاد...."، ومحمد قنديل

بتوعد "ياويل عدو الدار... من ثورة الاحرار". قيل فيما بعد أن بعض البرقيات كانت تكتب داخل الإذاعة التي كانت الهدف الأول للانقلابيين لتقرأ بحماس وبايحاء بان كل شيء حسم لصالحهم لتبث بعد ذلك تعليقات تحمّل حكومة رئيس الوزراء نكبات الأمة العربية كلها وتتوعد انصاره ومؤيدية بالسحق والموت، ثم تختم خطابها بنشيد "الله اكبر فوق كيد المعتدي".

استمر القتال في الشوارع والحارات طوال النهار ورئيس الوزراء ورفاقه يقاومون قصف طائرات ودبابات الانقلابيين. كان يرى مؤيديه يتساقطون أمام عينيه الواحد تلو الاخر. وفي ظهيرة اليوم التالي استسلم للانقلابيين بالإتفاق على ضمان حياته. ونقل عنه في الساعات الأخيرة قوله إنه أراد بذلك تفادي حرب أهلية ووقف سفك الدماء. أخذه الانقلابيون إلى دار الإذاعة بدبابة. بدا وسيما بعد أن حلق ذقنه، وفي داخله كان مستعدا للموت. قيل إنه حين دخل مبنى الإذاعة ساد الهدوء المكان. كان حاسر الرأس وقد خلعت عنه رتبته وأوسمته. راح ينظر في وجوه الانقلابيين، تأملهم باندهاش. رأى بينهم الذين تآمروا ضده وحاولوا قتله أكثر من مرة وعفا عنهم. وبلمحة خاطفة مرق أمام عينيه وجه احد رفاقه الضباط الذين تآمروا عليه ووافق على إعدامه. تذكر إنه بكى عليه وظل يرى طيفه عدة أيام وهو يردد في نفسه: "كان ينبغي ألا يحدث ذلك".

أحد شهود العيان قال إن الانقلابيين لم يجروا له أية محاكمة كما اعتاد ان يفعل هو، بل كانوا يطلقون عليه الشتائم والالفاظ النابية، وكان بعضهم يطالب باعدامه بسرعة. أدرك أنه سيعدم فاعتدل في وقفته

ووضع سدارته على رأسه. رفض عصب عينيه، كما رفض أن يربط جسده إلى كرسي. في تلك اللحظة توجهت البنادق نحوه، وقبل أن تنطلق رشقات الموت هتف: "عاش الشعـ"، ولم يمهله الرصاص كي يكمل هتافه بحياة الشعب الذي أحبه حبا لم يذق طعمَه أيُ قائد غيره.

نقلوا جثته سرا وأمروا بدفنه، وهو بملابسه العسكرية، في موقع قرب معامل الطابوق. أهالت مفرزة عسكرية التراب عليه وأخفت معالم الحفرة. لكن شغيلة معامل الطابوق، الذين ناصروه، تمكنوا من الاهتداء إلى قبره وراحوا يخرجونه من الحفرة ليدفنوه في مكان يليق به، غير أن قوة عسكرية هاجمتهم واستولت على الجثة. وبناء على أوامر القادة الجدد وضعت في كيس من الخيش وأثقلت بكتل الحديد وألقيت في نهر دجلة كي تغرق آثاره في أعماق النهر إلى الابد، وكي لا يتحول قبره إلى مزار. لكنهم لم يدركوا أن حكمه الذي لم يدم سوى أربعة أعوام وستة أشهر وخمسة عشر يوما كان كافيا لإثارة جدل استمر عدة عقود، كما فاتهم أن يدركوا أن الناس الذين ضحى من أجلهم لن ينسوه أبدا، فبعد اربعين عاما ظهر بهيئة تمثال برونزي شيّده محبوه من أموالهم الخاصة في نفس الموقع الذي شهد محاولة اغتياله الشهيرة.

في اليوم التالي لاعدامه ذهب الانقلابيون إلى مكتبه في وزارة الدفاع علهم يكتشفون دليلا لإدانته والتشهير به فوجدوا ملفات مشاريع سياسية واقتصادية، وسجلا يضم اسماء العوائل الفقيرة التي كان يقتسم مرتبه معها.

لم يصدق أحد قصة مقتله، واستمرت جيوب المقاومة هنا وهناك، فاضطر الانقلابيون إلى عرض شريط على شاشة التلفزيون يصور

إعدامه. احتشدت البلدة في مقاهيها القليلة. كان علي يحاول أن يجد له فسحة ضيقة تتيح له مشاهدة الشريط. وفي كل مرة يعثر فيها على مكان يسمح له برؤية التلفزيون، الذي وضع فوق خزانة عالية، يأتيه من يزيحه فيعيد المحاولة من جديد. أخيرا تمكن من رؤية اللقطات: رئيس الوزراء يجلس على كرسي وقد بدت بقع الدم على قميصه. يمسك جندي خصلة من شعره ويبصق في وجهه.

أحسوا ببشاعة المشهد وبحجم الكراهية والحقد في قلوب البشر. لقد عومل شخص ميت بما لا يليق بقداسة الموت. ليلتها لم تنم البلدة، واحتدم النقاش بين رجالها، إذ رأى بعضهم انه هو السبب في كل ذلك، فيما رأى آخرون أن الانقلابيين لم يفوا بوعدهم له اثناء استسلامه وهو المحافظة على حياته والاقامة في الخارج.

بكى علي، بكى كما لم يبك على أحد من قبل، وظل يتذكر مشهد الجندي وهو يبصق في وجه رئيس الوزراء لعدة سنوات.

بكت البلدة وابقت على صور رئيس الوزراء معلقة فوق جدرانها الطينية. ولم يصدق أحد منهم أنه توفي ولن يروه ثانية، بل استمروا يتناقلون الحكاية تلو الحكاية عن ظهوره مرة في ايران، ومرة في الاتحاد السوفييتي، وأخرى في منصورية الجبل أو في أحد أحياء بغداد.

* * *

مر عيد ذلك العام ببطء فيما تمنى سكان البلدة أن يمضي مسرعا كي يتخلصوا منه كما لو كان كابوسا ثقيلا.

تعمدت مكية الحسن ألا توجه التهاني إلى أقاربها ومعارفها. لم يزرها سوى حليمة وعبدالحسين الذي نجا من الموت أثناء القتال باعجوبة. قال إن الطلقات كانت تمر جنب رأسه.

وهو في رقدته الطويلة المستقرة على حشية في الغرفة الطينية أحس سلمان اليونس انه فقد كل شيء، وان ما كان يبنيه تهدم دفعة واحدة، يومها كان قلبه عاجزا عن تحمل المرض والالم. انتفض جسده مرة ثم خارت قواه ولم يعد قادرا على الوقوف على قدميه اللتين أخذتا تنتفخان أكثر فأكثر. واستغرق في تصفح أيامه الكدرة الكئيبة متوحدا مع المرض، مخذولا أمامه. اعترف أمام نفسه بقوة مكية الحسن، واعترف ايضا بأن لها الفضل في بناء أسرته وفي مواجهة مصاعب الحياة. رأى صورا متناثرة من حياة علي لكنه يتذكر الأيام التي يذهب معه إلى المستشفى الجمهوري، يومها كان يعامله كرجل ويلقي عليه مهمات أكبر من عمره لا يستطيع أن يدركها. وجاء يوم فارق فيه الحياة. لحظتها لم يكن إلى جانبه أحد. كانت هناك الافعى فقط تتنقل في ارجاء البيت الموحش، ذلك أن مكية الحسن وبنتيها قررتا قضاء فترة ما بعد الظهر في مرقد السيد جارالله.

جرت مراسم دفنه بهدوء كبير فمقتل رئيس الوزراء أثار موجة طويلة وعميقة من الحزن طوت حياة السكان، وتداخلت مع أحزانهم الشخصية وهيمنت عليها. لم يحضر دفن سلمان اليونس سوى عدد من أقاربه وشغيلة معامل الطابوق الذين عمل معهم مذ كان شابا. سيطر على مكية الحسن شعور بأن زوجها واحد من الضحايا الذين جاوزت اعدادهم الالاف، وان رئيس الوزراء سيعود ذات يوم إلى الحكم وسيساعدها على تحمل مصاعب وحدتها وشقائها خصوصا بعد حملة الاعتقالات العشوائية الواسعة التي حولت البلاد إلى سجن كبير.

ففي الأيام القليلة التي اعقبت الاعدام ظهر فجأة رجال من مختلف

الاعمار بوجوه محتقنة شرسة عدوانية اطلق عليهم اسم (الحرس القومي). كانوا يربطون أشرطة خضرا على أذرعهم ويحملون بنادق من نوع بورسعيد مصرية الصنع، بينهم قدوري الذي ظهر فجأة وراح يتجول طليقا من دون خمر، لكنه سكران بانتصاره. يجوب شوارع البلدة وحاراتها، يتباهى ببندقيته في المقاهي ويفتش في وجوه الرواد عن مطلوبين له وللسلطات الجديدة ويختلق أي سبب لاعتقال احد. افتتحوا مراكز في كل حارة وشارع، فتشوا البيوت والاكواخ والسقائف، وهم يحملون صورا وقوائم باسماء المطلوبين. حولوا الملاعب ودور السينما والنوادي إلى مراكز اعتقال بعد أن امتلأت بهم السجون المعروفة. وفي غرف التعذيب وأقبيته السرية قلعوا أظافر المعتقلين وارسلوا بعضهم إلى المشانق فيما عقدوا محاكم صورية أصدرت أحكاما بالسجن المؤبد على آلاف آخرين. استخدموا المثقب الكهربائي، المنشار الآلي، القضبان الحديد، الاسلاك الكهربائية، سوائل لحرق الاجساد واعقاب السكائر. ففي معتقل قصر النهاية، وحسب شهادات الجلادين والسجناء، جرى تعذيب المطلوبين حتى امتلأت سراديبه بالدماء والجثث المتفسخة، كما جرى اغتصاب العديد من النساء وبقرت بطون الحوامل. اما معتقل خلف السدة الذي تتسع القاعة فيه إلى ستين شخصا فكانوا يضعون فيها أكثر من الف. أجساد بشرية تتراكم فوق بعضها، لا تعرف كيف تجلس أو تنام أو تتنفس. وإذ ضاق المكان بالمطلوبين حولوا قاعة المكتبة إلى معتقل، وكانوا يهددونهم كل يوم بنقلهم إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي الرهيب في بادية السماوة.

اختار عناصر الحرس القومي وقت الذروة المسائية لشن حملة

اعتقالات لاسباب عشوائية، بعضها لا صلة له بالسياسة والاحزاب والتنظيمات النقابية. كانوا يريدون إشاعة جو من الرعب، لكنهم بدوا كما لو أنهم يصارعون الرعب الذي في أعماقهم بعد موجة الغضب والحزن التي شملت البلدة إثر اعدام رئيس الوزراء.

لفق الانقلابيون إتهامات باطلة أو مزورة للمعتقلين، بعضها شخصي كيدي، الامر الذي دفع قسماً منهم إلى اعتقال اخوتهم أو اقاربهم، أو من كانوا اصدقاء لهم واطلعوا على اسرارهم يوما ما.

أوقفوا سيارة شرطة خاصة بنقل السجناء في ساحة السوق التي تتصل باربعة تقاطعات لتقليل احتمال أن يفلت احد. ذلك المساء خرج علي لرؤية بدرية وهي في أشد لحظات انشغالها في الدكان، تزن الفواكه والتمور، تطرد الذباب، تروّج لبضاعتها مبتسمة للمشترين الذين يقفون مترددين، تتناول النقود، وتعدل من وضع السلال. مر علي امام دكانها عدة مرات دون ان تراه. كان يقطع السوق جيئة وذهابا يردد أغنية عاطفية حين سمع صيحة من أحدهم: "هذا، هذا"، ثم هجم عليه ودفعه إلى داخل سيارة الشرطة تحت وابل من الصفعات على مؤخرة رأسه. وبعد أقل من ساعة اكتضت السيارة بالمعتقلين يحرسها عدد من عناصر الحرس القومي الذين تعلقوا بجنباتها فيما تدلت بنادقهم في الهواء.

أمضى يومين رأى خلالهما مئات الوجوه التي يعرفها. رأى سوادي حميد، وصادق النجار، والحاوي، و"الشحْمان".

كانا أخوين بعمرين متقاربين. تميزا عن سائر سكان البلدة ببياض بشرتهما. لذلك كانا موضع استغراب ودهشة الجميع، من اين جاءا بكل هذا البياض فسكان القرية سمر الوجوه، ذوو بشرة لوحتها الشمس؟ لذا

اطلق عليهما لقب "الشِحْمان". لم يكن علي على وفاق معهما فهما يتفوقان عليه بدقتهما في رسم صورة رئيس الوزراء بقلم الرصاص.

وحين يستاء منهما يحتكم إلى أحد المارة الذي ما أن يلقي نظرة سريعة على الرسوم حتى يشير إلى تفوق رسوم الشِحْمان.

حين شاهدا علي نهضا لمقابلته وأجلساه بينهما، وسألاه عن سبب اعتقاله. لا يعرف ولا هما يعرفان سبب اعتقالهما. المئات من نزلاء خلف السدة، الذين كان صراخهم يهز البدن، لا يعرفون لماذا اقتيدوا إلى هنا. شكوك، وافتراءات، واحقاد، وثأر وجهل بالمعلومات. اما الذين يعتقد بقوة بانهم اعضاء في احزاب سياسية أو الذين يصمدون تحت التعذيب فسرعان ما ينقلون إلى معتقلات أخرى. هذا ما حدث للحاوي الذي اتهموه بأنه كان يوزع منشورات شيوعية بعد انتهائه من عرض الافاعي على المتفرجين. رآه علي في المساء فتذكره، كان يئن من الألم، فتش عنه في الصباح التالي فلم يجده إذ نقلوه إلى مكان مجهول.

ذلك اليوم زار المعتقل ضابط كبير في إطار مهمة تفتيش مراكز الاعتقال. لمح علي بين المعتقلين فناداه. تقدم منه. التفت الضابط إلى احد مسؤولي المعتقل وسأله عن سبب الاعتقال. رد المسؤول:

- "شيوعي سيدي".

تفحص الضابط وجه علي وسأله مستهزءا:

- "شيوعي انت؟"

ثم صاح وهو يشير بسبابته إلى الخارج:

- "إطلع برة".

انطلق علي إلى الباب الخارجي. وجه الضابط تأنيبا غامضا

للمسؤول، وذكر الآخرين، الذين اصطفوا امامه وهم يحملون اسلحتهم، بالقوائم والصور التي زُوِّدوا بها، وقال:

- "ملأتم المعتقل بمن هب ودب".

التفت إلى مسؤول المعتقل وقال:

- "اعطني قائمة المطلوبين".

تلك اللحظة انتبه الضابط إلى "الشحْمان" . كانا يقفان في الصف الامامي. سأل عن تهمتهما فقال له المسؤول:

- "سيدي يرسمان صور رئيس الوزراء ويوزعانها مجانا". امتعض الضابط من اجوبة المسؤول، مط شفتيه، ثم نادى على "الشحمان". ترددا في الاستجابة خائفيْن، فزعق الضابط وعينه على البوابة الرئيسية:

- "اطلعوا برة".

وانطلقا مسرعين نحو بيتهما عبر الأزقة القريبة.

عند الباب الخارجي فوجئ علي بأمّه تجادل حارسا كان يصر على منعها من الدخول فيما كانت تحاول أن تزوغ من ذراعيه وتدفعهما وهي تهم باقتحام المعتقل. قالت وهي تصرخ لاهثة:

- "أريد ابني".

قال لها الحارس متوسلا:

- "لا استطيع الآن يا أمي، ضابط التفتيش في الداخل، مفهوم؟".

ردت مكية الحسن بانفعال:

-"انا أريد أن اقابل الضابط، اريد اشوف كيف يقبل بافعالكم".

قال إنه لا علاقة له بما يجري، انه مجرد حارس.

تلك اللحظة لمحت علي يتقدم ناحيتها فهدأت، عانقته وسألته إن كانوا ضربوه فأجابها

- "شويّة".
- "ليش أخذوك؟"
- "قالوا إنني كنت أختم صورة حمامة السلام على أيدي الأولاد".

فعلقت ساخرة:

- "أذكياء".

في طريق عودتهما عرف علي معالم المنطقة المحيطة بالمعتقل، وتذكر ذلك اليوم البعيد عندما جاء إلى هنا لبيع المرطبات وهو صغير. وقتها كان البناء في طور التشييد. تذكر الحارس المتجهم الذي حذره من العودة إلى هذا المكان.

في البيت كان عبدالحسين بانتظارهما. قال إنهم استجوبوه وأهانوه وصدر قرار بنقله إلى معمل أحذية الجيش.

* * *

بعد إطلاق سراحه من معتقل خلف السدة أمضى سوادي حميد عدة أيام في بيته يطعم طيوره. كان يتألم من كل جزء في جسمه من آثار الضرب بالهراوات وخراطيم المياه. مرة سألهم عن سبب اعتقاله أجابوه بأنه أول من نقل نبأ الثورة إلى البلدة وبشّر بها، وإنه كان يدق الطبل في شوارعها ابتهاجا بوقوعها. بعد أيام قال سوادي في المقهى امام الجميع إن قدوري أشرف على تعذيبه، ثم خلع دشداشته وكشف آثار السياط. كان ظهره مليئا بالتقرحات والجروح الناتئة الجافة. روى انهم كانوا يعلقونه بالمروحة السقفية ويصرخون من حوله: "اعترف". تساءل

مستهزءا وهو يوجه كلامه لرواد المقهى: اعترف على من؟ ماذا اقول؟ لدي طيور وطبل؟

ذلك اليوم دخل كنيّز المقهى من دون سلة "الباسورك". كان يتكئ على عصا. قال وهو يضحك إن ظهره يؤلمه من التعذيب. ضحك كنيّز ذلك المساء كثيرا، يضحك كلما يسألونه عن سبب اعتقاله، يهم بقول شيء ويضحك. اخيرا قال إن تهمته هي أنه بتقليده عراك كلبين إنما يشير إلى البعثيين والقوميين. يضحك عاليا ويضيف: "كنت أقلد كلاب الكورجة وبيت زامل". يضحك معه رواد المقهى فيعيد تقليد عراك الكلاب امامهم دون أن يكترث بأحد. يقول، وهو يهز عصاه، إن جسمه اعتاد على الخيزران.

لكن الحدث الاكبر كان يوم الإفراج عن أربعة من ابناء عريبي بعد مضي أربعة اشهر على اعتقالهم في ليلة واحدة. كمنوا لهم قرب ساحة الطيران التي يمرون عبرها كل يوم في طريق عودتهم من العمل. من هناك اقتيدوا إلى مكان مجهول. فتش ابنا عريبي الاخران عن إخوتهم في أماكن كثيرة وسألوا عددا من مراكز الاعتقال فلم يتوصلا إلى نتيجة. اتصل عريبي بمعارفه، الذين أصبحوا فجأة عناصر في الحرس القومي، غير أنهم فشلوا في معرفة مراكز اعتقال ابنائه.

حين وصلوا عصر ذلك اليوم كانت لحاهم كثة وشعورهم طويلة وملابسهم قذرة ممزقة. ومع أنهم تعرضوا للتعذيب في الأيام الأولى لاعتقالهم فقط إلا انهم بدوا منهكين خائري القوى. تلك الليلة اغتنم عريبي الفرصة فأقام حفلة ظلت اصداؤها تتردد في ارجاء البلدة حتى الفجر. قيل وقتها إنه احتسى خمرا بعد ان أبعد ابناؤه الناس الذين

تجمهروا امام بيتهم وطردوا الأولاد الذين اصطفوا متكئين على الجدران، وحين رفضوا المغادرة رشوهم بالماء فتفرقوا وهم يشتمون وينفضون البلل عن رؤوسهم وملابسهم.

* * *

تلك الأيام افتتح عبد الحسين محلا لتصليح وتأجير الدراجات الهوائية بعد ان اغلق غنّاوي محله وانصرف لبيع الخيار المملح في طرقات البتاوين والقصر الابيض وحانات شارع "أبو نؤاس".

كان محل غنّأوي ودراجاته المتنوعة مركز جذب لسكان البلدة صغارا وكبارا، فالفسحة التي امام المحل كانت مكانا للتدريب والسمر والوشايات والإشاعات وتبادل الأشعار. ولأن غنّأوي كان يصر على أن يدرب الأولاد المبتدئين بنفسه انتشرت حكايات كثيرة حوله. قيل إنه يلمس مؤخرة الصبي حين يرفعه للجلوس على سرج الدراجة، أو يحتضنه حين يسقط منها أو يتلكأ في قيادتها. ما عزز تلك الإشاعة هو انه لم يكن يغضب حين يصدم الصبي الدراجة بجدار أو يهوي في حفرة. ومع ذلك ظل محله يتمتع بجاذبية خاصة تزداد باستمرار مع شراء دراجات شبه جديدة من أحجام مختلفة. لكنه كان يرفض تأجيرها للمتدربين، إنما يجبرهم دائما على استخدام القديمة إذ أنها عرضة للتلف والتفكك بسبب عثراتهم وأخطائهم. كان يغري الأولاد بغسلها وتنظيفها مقابل دورة أو دورتين مجانا، لكنه غالبا ما يسامحهم على تأخرهم. وكان، أمام الكبار العاطلين والعزاب والمتسكعين والهاربين من الخدمة العسكرية، ينهمك بنظم قصائد أو أبيات باللهجة المحكية، مكسورة الوزن عادة لا ترقى إلى مستوى الشعر. كانت قصائده تتحمل معنى السخرية من شخصيات

سياسية معروفة أو وزراء أو رجال أمن مع انها لم تكن تستهدف غير النكات والظرف وإشاعة جو من المرح بين زبائنه واصحاب المحال المجاورة. وحدث في الشهور الاخيرة أن أصبح المحل مكانا لتجمع معارضي السلطة الجديدة. وذات يوم جاء رجال أمن عند المساء واعتقلوا غنّأوي أمام الجميع. لقد فعلوا ذلك عن قصد لإرهاب الآخرين. أثناء سلسلة التحقيقات التي اجروها معه أخرجوا واحدة من قصائده وقرأوها امامه:

"وين رايح يا حلو تلعب حديد

حجي مشن يتنطرك تضرب ثريد

وزاير محيسن قبل منصب وزير

وهو ما يفك الحرف، الفح وطير

اترك دروسك وأجّر بيسكل

دير بالك تمشي يمهم، دير بالك تنكتل" .

طلبوا منه ان يفسر لهم بعض الأبيات، وأن يحدد اسماء الذين يقصدهم. من هو حجي مشن، من هو زاير محيسن. استغرق التحقيق الأولي نهارا كاملا. كانوا يرفضون أجوبته ويرون فيه كذابا مختالا، فيعلقونه بالمروحة السقفية، هكذا يظل يدور حتى يغيب عن الوعي، وتنهال عليه خراطيم المياه، تليها الاسلاك الكهربائية ثم استراحة، بعدها تبدأ الجولة الثانية.

أغلق المحل. ترك الاشعار. وأخذ يبيع الخيار المملح في خمارات "ابو نؤاس" والباب الشرقي. بدأ يهرب من الآخرين، وتستعر في نفسه رغبة بالبكاء واحساس بالفقدان. وإذ يصادفه معارفه السابقون من

الأولاد والشبان، يشيح بوجهه وينشغل عنهم بتعديل وضع بضاعته على كتفه، أو بسحب يشماغه إلى أمام كي لا يتبينوا ملامحه. وحين يقابلونه ويحيّونه بحماس يرد عليهم ببرود كأنه لا يعرفهم، لكنهم، في أعماقه، يذكرونه بأجمل فترة في حياته، يذكرونه بصخبهم واحتيالاتهم وكذبهم وشرورهم ومفاسدهم. بدا كمن يخفي شيئا عنهم وعن نفسه. لا يريد ان يتعرف اليه مع أنه يدرك أي جرح سبب له ذلك الاعتقال الدموي. فمع استذكار كل لحظة منه يخيم عليه إحساس بالعار. ففي ذلك اليوم قال له المحقق إنه اذا لم يعترف على تنظيمه فسيدع الجلادين يفعلون به كما كان يفعل هو بالصبية الصغار. ما يتذكره هو أن اثنين منهم خلعا ملابسه حتى غدا عاريا تماما، فيما تقدم منه ثلاثة آخرون. بعدها غاب عن الوعي لساعات وحين استعاد بعضا من نشاطه كان يشعر بألم قاس في مكان ما من جسده. وجلس يبكي وسط ضحك الجلادين وسخريتهم.

مرت السنوات، ذبل وجهه واستطال، وتساقط جانب من أسنانه، وهرم جسده كله فلم يعد ثمة أحد يتعرف عليه بسهولة، فاطمأن إلى ذلك التغيير المفجع ولاذ به من قسوة التجربة.

* * *

دخل كنيّز داره مرهقا منكسرا، رمى سلته وتمدد على الأرض مستندا إلى جدار الطين ليريح ظهره. كان يردد دائما انه انسان بلا ظهر لأنه لم ينجب من زوجته التي توفيت وظل يحتفظ بذكراها مثل شيء ثمين لا يقبل تبديله أو المساومة عليه. هكذا عاش سنوات طويلة على تلك الذكرى المؤلمة. أحيانا يتصرف كما لو أنها موجودة. يعود من جولته النهارية بابتسامة واسعة تنم عن شعوره بالتفاؤل والقناعة، يعطيها

كسبه من بيع "الباسورك" فترتسم على وجهها المدور علامات الفرح والرضا. يمازحها ويقرصها فيما تسكب الماء على يديه ليغسل وجهه وقدميه. وحين تذهب لتجلب المنشفة يلومها على تأخرها. ثم يجلس يتناول عشاءه معها، يشربان الشاي ويتسامران.

تلك الليلة عاد حزينا عقب شجار مع غنّاوي اثناء مروره أمام محله وقت العصر. كان هناك تجمع لرجال وعدد من الأولاد الذين ينتظرون دورهم في استئجار دراجات هوائية. قدم كنيّز وقبل أن يضع سلته على الأرض ويبدأ بإطلاق النكات والتمثيل كعادته طرده غنّاوي وطلب منه ألا يأتي إلى محله مرة أخرى. وحين تساءل كنيز عن السبب أبلغه غناوي بانه يثير له مشاكل مع الحكومة بنكاته وطرائفه ويتحمل هو مسؤولية ذلك. تناقشا بأصوات عالية وبحجج مختلفة. ورغم تدخل الآخرين الا أن غناوي استمر يكيل الاتهامات والأوصاف النابية لكنيّز الذي حمل سلته وتوجه إلى داره.

نادى على زوجته أن تأتي بالطست والماء ليغسل يديه وساقيه. قال لها إنهما تؤلمانه من المشي في الطرقات. فكرت: "ليس من عادته أن يدخل البيت دون ابتسامة أوضحكة"، وتساءلت عما حدث له خلال النهار. أخبرها عن الشجار مع غنّاوي وقال إنه تلقى منه إهانة وإتهامات باطلة. ضحكت ساخرة من غناوي وافكاره وطلبت منه أن يرتاح وينسى الأمر والأيام كفيلة بمعاقبته. انتبه كنّيز إلى أنه يجلس وحده وأن زوجته توفيت منذ زمن بعيد، ولم تعد سوى ذكرى محزنة. استلقى في مكانه ونام. لكنه حين سمع باعتقال غناوي وتعذيبه نسي تلك الحادثة وذهب لزيارته يوم الجمعة من دون ان يأخذ سلته معه. يومها

رأى غنّاوي حزينا ومنكسرا، يتـفادى النظر في عين مـحدِّثه. وقـال في نفسه "الله وحده يعلم بما فعلوه به أثناء التعذيب".

***

شطر عبد الحسين غرفة الجلوس الطولية واتخذ القسم الامامي محلا لتـصليح الدراجـات الهـوائيـة بعـد أن هدم الجـدار الخـارجي المطل على الشـارع قرب السـوق. كـان مـن عـادته أن يسـتيـقظ مـبكرا، يفـتح باب المحل، يرش الأرض أمـام الواجـهـة بالمـاء ويكنسـهـا، ثـم يُخرِج الدراجات الهـوائـيـة ومعـدات التـصليح، يفـتح الراديو الذي اشـتـراه مؤخـرا ويجلس على كرسي واطئ دونما أذرع، منتظرا أغنية لأم كلثوم.

ذلك الصـباح فـتح عـبد الحسـين المحل فلم يجد أيا من محتـوياته. كـانت هناك فـتحة كبيـرة أحدثها اللصوص فـي الجدار العـازل بين الغـرفـة والمحل. نادى على حليـمة التـي شهقت حين رأت الفتـحة واندهشت كيف ان اللصـوص تمكنوا من اخـتـراق الجـدار دون إحـداث ضـجـيـج يكفي لإيقـاظهـمـا. غـضبت وألقت المسؤوليـة على عـبد الحسين ووصـفتـه بأنه شخص يفتـقد التدبير، وأنه يتنقـل من مهنة إلى أخرى دون اعتبـار لنتائج ذلك على عـائلتـه. قـالت إنه لم يـقرر حتى ختـان ابنه الـذي يؤجله في كل مرة يجري الحديث عنه. منذ ذلك اليوم أغلق عـبد الحسين المحل، ولكي يرضي حليـمة ختن لابنه سليم لدى أحد المضـمدين الذي اسـتخـدم المخدر لأول مرة في تاريخ البلدة. كـانت المناسبـة بسيطة اقـتصـرت على أقـاربه وعلى إيقـاعـات سـوادي حـمـيـد ورقص الأولاد وأغـانيـهم بسـبب المناخ الكئيب الذي كـان يحيط بالبلدة ويفرض عليـها سلوكا أقرب إلى الحداد بعد الغياب الصادم لرئيس الوزراء.

يوم ذاك حقق المضمد الجديد، الذي كان يرتدي ملابس بيضا، شهرة واسعة لاستعماله ادوات دقيقة اضافة إلى المخدر الموضعي الذي أدهش الحاضرين بنتائجه إذ أن ختان سليم تم دون ألم، وبدأ الجرح يلتئم بعد ثلاثة أيام، يزوره المضمد خلالها مرتين في اليوم، يزيل الرباطات القديمة ويضع مسحوقا أبيض على موضع الجرح. افتتن الشباب بذلك وتذكروا ساعات الألم المضنية اثناء ختانهم وما بعده، وتداولوا احتيالات ممتهني الختان، وبعضهم من الحلاقين، لإشغال الصبي وخداعه لحظة تنفيذ العملية.

الفصل التاسع

انسحبت البلدة إلى نفسها في سكينة مضجرة. بدا الناس كالغرباء يمضون في مسالك مختلفة وإن توحدت وجهتهم. قلما يكلم أحدهم الآخر، وإن حدث فهو كلام قصير هامس. كأن ارواحهم لم تعد فيها تلك الطاقة الهائلة على الكلام والشرثرة والوشايات. حتى معاركهم ونزاعاتهم ومناسباتهم غدت خاملة خالية من تلك الفورة الداخلية التي انبثقت ذات يوم موارة كالينابيع، مضيئة كالكواكب تعززها الأحلام والأمنيات. بدت حركتهم، وهم يخرجون من بيوتهم فرادى أو مجموعات، بطيئة واجمة مشدودة إلى شيء ما يثبتها في قلب سكون هش رخو يذوب في دوران الأيام الساكن البطيء. كانوا يتصرفون كما لو أنهم في مأتم، أجفانهم مثقلة وملابسهم سود. رفضت مكية الحسن دعوة جارتها نشمية لخلع ملابس الحداد قبل أيام من عرس صبيحة. كان حزنها غامضا، لا يفصح عن نفسه، ولا هي قادرة على أن تفصح عنه. كانت تشعر أن ما حدث لم يكن مقتل قائد فقط، إنما هو شيء آخر لا تستطيع إدراكه أو التعبير عنه.

حتى بدرية لم تعد مرحة متألقة كما كانت. بدا وجهها ذابلا خاليا من بريقه وشعاعه، فيما انصرف سوادي حميد إلى طيوره، وأخذ يقضي

أوقاته في اماكن بعيدة لا يعرفها أحد. وحين يسأل عنها يجيب بكلمة واحدة: "في بغداد". لا يتحدث إلى الآخرين، وإذا حدثه أحد يغضب ويطلق سيلا من الشتائم ضد اسماء مجهولة وشخصيات وهمية.

. صادق النجار ازداد صمما منذ أن أفرج عنه بعد تسعة شهور. أخذ يعامل زبائنه بجفاء ويكلمهم بصوت خفيض، لا يهمه إن سمعهم، ولا يهمه إن أثنوا عليه أو امطروه بسلسلة من الكلمات النابية.

خلال شهور لم يحدث ما يعيد ذلك الألق الوجداني العميق الذي انتشلهم من ركود السنوات المعتمة. لم يحدث سوى أنباء متواترة عن ظهور رئيس الوزراء في أماكن متفرقة داخل البلاد أو خارجها، في ساحة عامة أو مزار. خبأت مكية الحسن صورته. لفتها في فوطة قديمة وأغلقت عليها صندوق عرسها، الشاهد الحي على شقائها وكفاحها، صندوق الاسرار والرموز والحكايات، مخطوطة تفاسير الأحلام التي ينطق بها الخرز الملون أثناء نوم ثقيل.

تلك الظهيرة جلبت لها أمرأة عجوز خرزة بنّية ملساء لاختبارها ساعة القيلولة. وضعت مكية الحسن الخرزة تحت وسادتها واستلقت على الأرض تحدق في السقف الأجرد. تذكرت الأفعى التي اختفت منذ وفاة زوجها سلمان اليونس. دار بصرها بين الأعمدة الخشبية والسعف وجريد النخل، ثم تركز في الزوايا المعتمة، لكنها لم تجد أثرا. وهي تحول عينيها بين جنبات الغرفة الطينية استغرقت في النوم. كان نوما ضاغطا مشوشا رأت خلاله الأفعى تجلس قبالتها وتبتسم ثم تقدمت منها تحبو كطفل. فتحت لها ذراعيها واحتضنتها لكن الأفعى لدغتها في ذراعها فاستيقظت من نومها فزعة. قالت لنفسها "فأل خير". وقررت أن تطبخ

دجاجة في المساء وتوزعها على الجوار ترحما على روح زوجها سلمان اليونس.

أعادت الخرزة إلى المرأة العجوز وهي تقص عليها تلك الرؤيا، لكنها طمأنت حاملتها بأن لسعة الأفعى كانت مصحوبة بدم، والدم يفسد الحلم.

* * *

قبل أيام من زفاف صبيحة إلى ابن خالتها يوسف أعلنت السلطة الجديدة حظر تنظيم الحرس القومي وتفكيكه وسحب أسلحته. قوبل القرار بنوع من التمرد هنا وهناك لكن التنظيم، الذي بدا قويا، سرعان ما أنهار تحت ضربات الجيش. هرب عناصره بعد أن خلعوا أشرطتهم الخضر، ورموا أسلحتهم في الحقول والمزارع والسواقي والمزابل وفوق البنايات العامة وبين طيات السقائف. هكذا اختفوا من الشوارع والساحات والمقاهي فجأة مثلما ظهروا. وشيئا فشيئا استعادت البلدة روحها التي دفنت في تلك الفترة في أقبية السجون ومراكز الاعتقال الجماعي. ذلك اليوم اختفى قدوري، ولم يعد يسمع عنه شيء حتى عثر على جثته مثقبة بالرصاص قرب قناة الجيش. وقتها خرجت هاشمية إلى الاسواق والحارات تتبضع أو تبيع أو تقوم بزيارات حرمت منها لسنوات بسبب ملاحقته وابتزازه لها. عصر احد الأيام جاءت للإقامة مع نشمية حتى يحين يوم الترحيل فوجدتها خائرة القوى منذ أن سمعت بخبر مقتل ابنها مع أنها لم تكن تعلن ودا له. بل حدث مرة أن تبرأت منه أمام نساء البلدة، الا أنها حزنت على تلك النهاية، وراحت تمضي أيامها بالجلوس وحيدة في بيتها، حتى أنها افرغت "الجنبر" من الحلوى. لكن حين جاءت هاشمية

دبت في البيت حركة نشطة قالت إنها تعبت من مطاردة قدوري لها ، ومن التجوال بين الحارات في الحر والبرد ، وهي تفضل الآن البيع في السوق. وهكذا استأنفت نشمية بيع الحلويات الى جانب هاشمية الأمر الذي شغلها كثيرا وأعطاها فرصة لنسيان مقتل ابنها.

في تلك الأيام وصل إلى البلدة رجل يقرأ الطالع يطلقون عليه "السحّار" ، وقد سبقته شهرته بقدرته على كشف المستقبل والتنبؤ به. لم يتجول بين البيوت لممارسة مهنته التي يكتنفها الغموض والطلاسم والزعفران إنما اختار المقهى مكانا للقاء زبائنه الراغبين. كان الناس منشغلين باقتراب مشروع الترحيل إلى المدينة الجديدة، والجو مشبع بالإشاعات والخرافات والأوهام فلم يكترث له أحد. أمضى السحار في البلدة يومين لم يلتق خلالها إلا بعدد قليل من الشباب. وحين هم بالمغادرة وقف في وسط المقهى وقال بصوت مرتجف: "ستفرّقكم الأيام". لم يهتم لكلامه رواد المقهى، ومضى دون أن يلتفت.

***

لم تصدق مكية الحسن أن صبيحة أقلعت عن أكل الأحجار نهائيا ، وأن شباب البلدة بدأوا ينظرون اليها على أنها زوجة محتملة. لكن مكية كانت ترد الخاطبات بلطف دائما ، مرة بالقول إن ابنتها مخطوبة لابن خالتها يوسف إلى الحد الذي أخذت صبيحة تتصرف معه، حين يزورهم، على أنها الزوجة المقبلة له. أمضت صبيحة شهورا طويلة في الرغبة بالعودة إلى الأحجار لكنها كلما استنشقت رائحة التراب تذكرت ما قالته فاطمة قبل عودتها إلى الريف: "الرجل لا يهوى امرأة تأكل الطين". وهكذا منذ اليوم الذي ارتدت فيه عباءة وحجبت شعرها بفوطة

بدأت تفكر بضرورة الإقلاع عن أكل الأحجار. وتحت الرغبة المتواترة للجسد والأمومة تحدت كل أنواع الأحجار ولم تعد تكترث لوجودها بقربها في أي مكان. بدأت تضحك من نفسها حين تتذكر كم كانت مولعة بالطين، كما تتذكر كيف أنها تحملت الضرب والإهانات والتهديد من كل فرد في البيت.

منذ الأسبوع الأول لدخوله المدرسة شعر يوسف بكراهية للدروس والمدير والمعلمين. لكنه بسبب ضغوط والده لم يتمكن من ترك المدرسة حتى السادس الإبتدائي بعدها استمر على هوايته في جمع الأشياء المهملة والقديمة من المزابل والطرقات حتى امتلأت بها غرفة الوقود وانتشر بعضها خارجها. تلك الأشياء العتيقة المهملة كانت ترتبط لديه دائما بالمستقبل. ثمة ما يشبه الصلة الروحية بينه وبينها، ينظر إليها بإعجاب كبير ويتوقع منها كسبا وفيرا، إذ أن لديه اعتقادا قويا بأن الناس سيعودون إلى الإهتمام بها ذات يوم. لذا حين كبر أخذ يعمل في بيع وشراء الأشياء المستعملة: ساعات، راديوات، بسط، سجاجيد، عدسات مكبرة، اقلام حبر، مدافئ، خواتم، وكل ما شاهده أو اقتناه اثناء رحلاته الدائمة إلى المزابل خارج المدينة وطرقاتها النائية، ومن ثم إلى الأسواق ومحال الخردة في سوق الهرج أو الغَزِل أو باب الشيخ.

بعد أن غادرت العروس بقافلة من سيارات الأجرة إلى منطقة المعامل حيث يقيم يوسف مع عائلته تذكر علي ذلك اليوم الذي ذهب فيه لزيارة خالته. حين وصل كانت خالته في السوق، وكان يوسف في مستودعه يفحص أدوات والعابا وجدها في المزبلة القريبة.

لم ينتظر يوسف عودة أمه كي يراها علي إذ حان موعد قدوم

سيارات القمامة فأخذه إلى المزبلة لحظة وصوله. ذلك الضحى عثر يوسف على شيء ومضت له عيناه. خبأه بسرعة عن أعين الأولاد الذين كانوا يبحثون في أكوام النفايات بأيديهم أو بأسلاك حديد أو خشب، ويجمعون لقاهم عند أصغرهم الذي كان يقف بعيدا عن الرائحة التي تزكم الأنوف. كانت لقية يوسف قطارا صغيرا بماكينة وعربة واحدة. ليس مهما أن يعمل، فذلك لم يشغله أبدا، المهم أنه عثر على شيء سحره منظره ولونه الأخضر. قطار يشبه تلك القطارات التي يسمع صفيرها وهو في بيته في أوقات مختلفة من النهار إذ تندفع هادرة على السكة الحديد المتجهة إلى خانقين أو القادمة إلى محطة باب الشيخ.

حث يوسف ابن خالته علي للخروج من المزبلة فلحقهم فتى أرمد طليت عيناه بصبغ أحمر وقد عثر على الشيء الوحيد الذي يبحث عنه دائما: مطاط عجلات الدراجات الهوائية، إذ سيقطّعها إلى أشرطة طولية لصنع مصائد أو فخاخ. كان الثلاثة يغذون السير نحو بيوتهم فيما كانت عينا الفتى الأرمد منهمكة في البحث عن طائر في السماء أو فوق سقوف البيوت والأكواخ أو عند نهايات الخرائب. كان صيادا ماهرا لا يخطئ هدفه. هكذا يضع حصاة في وسط شريط المطاط المثبت على غصن يشبه علامة النصر، يسحبه ناحيته وهو يحدق في الطائر، فتندفع الحصاة بسرعة خاطفة فيهوي الطائر إلى الأرض مهما كانت سرعته أو قدرته على المراوغة والهرب. غير أن هدفا واحدا لم يتمكن منه حتى تلك اللحظة هو الحمامة القلاّبة. خسر الرهان أكثر من مرة على إصابتها في الفضاء. كانت بيضاء مبقعة، من النوع الذي يطلقون عليه اسم "بدرنك". لم تكن تطير مفردة الجناحين كما تفعل بقية الطيور إنما

تطويهما إلى أعلى وتقلب جسدها في كل ثانية. تستمر هكذا في تقلب متواصل حتى تصعد إلى إرتفاع شاهق وتغيب عن الأنظار. لا أحد يعرف مالكها أو المكان الذي تأتي منه. يرونها فجأة فوق رؤوسهم وهي في تقلب دائم مدهش يسلب عقولهم. لم يحدث أن رآها أحد جالسة في عش أو فوق شجرة أو طرف سقيفة أو جدار. كانت في تحليق نادر لا يتوقف، لذا لم يتمكن الفتى الأرمد منها رغم جميع محاولاته. وهو في كل مرة يراها يشعر بغضب يهتز له جسده فينتفض ويسب ويقسم ويتوعد.

اقتربت الحمامة على علو منخفض في سماء زرقاء صافية، محافظة على توازن متماسك بهلواني أخاذ. ثم وهي في دنوها وحركة جسدها الدوارة إنما ترتفع نحو الزرقة البعيدة. اندهش علي لذلك الطيران المتألق شبه العمودي، الطيران الإنسيابي العذب رغم الحركة العنيفة التي تؤديها الحمامة في تقلب جسدها المضاء بنور الشمس. تمنى أن يراها عن قرب، أن تتوقف للحظات أو تهبط على غصن أو جدار ليتأملها ويلمسها، تمنى أن تكون لديه حمامة قلأبة مثلها. سيحدّث سوادي حميد عنها، سيروي قصة طيرانها الأبدي، ويصفها وهي في ذلك التحليق الخلاب المتقلب في الزرقة البهية.

انتظرها الأرمد حتى تقترب أكثر. كان وهو يحدد المدى في مصيدته ينشطر إلى مئات الصيادين المهرة تحت الضوء الباهر. ورأى علي لذلك الصياد الصغير مئات الظلال على الأرض الترابية المعفرة. وسرعان ما انجذبت العيون القلقة تتقافز بين الصياد الأرمد والحمامة القلأبة التي كانت تخترق الفضاء فوق رؤوسهم. كانت العيون متعلقة

بها في اللحظة التي سحب الأرمد شريطه المطاطي الذي ألقمه حصاة اختارها من بين آلاف الحصى المتناثر حولهم، حصاة من النوع الذي خبره بتجربته المحكمة في ملاحقة الطيور. وفي لحظة مباغتة شعر علي ويوسف ازاءها بالعجز عن ان يفعلا شيئا ضده. خشيا من سطوته الخارقة عليهما كما هي على الأولاد الآخرين. في تلك اللحظة الشريرة تهاوت الحمامة مثل نيزك بحجم الكف وسقطت على التراب وفي رأسها جرح غائر. هرع الآرمد وهو يمسح عينيه الحمراوين. التقطها منتصرا. ابتسم وهو يفرد جناحيها ويتطلع في جسدها البارد، ثم ركض مسرعا باتجاه أهله. فيما أمضى علي يوما جنائزيا شعر خلاله بالجبن والخذلان.

عند العصر ودّع خالته التي عرضت عليه المبيت لكنه أصر على العودة، ثم عرض عليه زوجها أن يوصله إلى البيت لكنه تذرع بزيارة صديق له في المدرسة يقع بيته على الطريق.

* * *

سلك درب المنحدرات. كانت هناك جادة ترابية ضيقة وسط برية شاسعة تنخفض نحو خمسة أمتار عن مستوى الأرض التي امتلأت بالنباتات الشوكية. وعلى الجدران الداخلية للمنحدرات ثمة ثقوب كبيرة عششت فيها الطيور. لم يكن هناك أحد. نادرا ما يمر أحد من هناك، حتى شغيلة معامل الطابوق كانوا غالبا ما يسلكون الطريق الموازي للسدة الثانية حيث يتوزعون في اتجاه الميزرة أو العاصمة. هو نفس الطريق الذي سلكوه يوم اندلعت النيران في خزانات الوقود قرب سدة ناظم باشا. لا يعرف لماذا اختار تلك الجادة الموحشة التي لا تفضي إلا إلى المزيد من المساحات المنخفضة التي حفرتها ونقلت ترابها سيارات

المعـامل، وإذ اسـتنفـدت ذلك النوع من التـراب الصـالح لصنع الطابوق هجرتها. ظل يمشي على غـير هدى والشـمس تميل نحو الغروب. وسرعان ما اختفت خيـوط الضوء فشعر بالخوف. حاول الاهتداء بالأثار الباهتة للذين مـروا من هناك ذات يوم. تلك اللحظة لمح شبح رجل يمشي متكئـا على عـصـا. مـا الذي يفـعله رجل مـسن في هذا المكان وفـي مـثـل هذا الوقت؟ اقترب منه وقال له إنه ضل طريقه. وسأله الشبح وهو يمسد لحيته الكثة:

- "إلى اين انت ذاهب"؟

بدا له الرجل أعمى. أجاب علي بصوت مرتجف:

- "إلى بيت اهلي".

سأل الرجل:

- "لا تخف. ابن من انت؟"

- "ابن سلمان اليونس".

فوجئ علي برد الرجل:

- "الله يرحمه، اشلونها مكية؟".

اندهش علي لمعرفة الرجل بعائلته. لابد أنه كان يشتغل يوما ما مع والده في معامل الطابوق. تسلل اليه إحساس بالاطمئنان إذ انه سيهتدي إلى بيته قبل حلول الظلام.

- "أمي زينه. كيف أعود إلى بيتنا عمي؟"

حدد الرجل الاتجاهات بعصاه، وقال دون ان يوجه كلامه إلى علي إن عليـه ان يتبع الأثر، الأثر الذي تخلقه الروح فـيتـحول شـعـاعـا يختـرق العتـمـة ليـهتـدي به العـميـان والمبصـرون. بدا الرجل الشبح كما لو كان

يحدث نفسه حديثا لم يفهمه علي. وقبل أن يسأل مستفسرا أشار الرجل بعصاه إلى جهة بعيدة وقال:

- "هذا الاتجاه يوصلك إلى محطة القطار، ومن هناك تنحرف إلى اليسار وتمشي بخط مستقيم عندها تكون بمواجهة الصرائف". وقبل أن يختفي أضاف وهو يهز رأسه:

- "سلِّم ليْ على أمك".

أسرع علي بالسير في الاتجاه الذي حدده الرجل الأعمى، مندهشا من قدرته على معرفة الطرق. استبد به الخوف ما دفعه إلى الحديث بصوت عال. كان صوته مرهَقا أجش خافتا، لا يمكن أن يسمعه، فلجأ إلى غناء متعثر مضطرب، لكنه شعر بالارتياح حين تبين المحطة المهجورة في عتمة الغروب.

الفصل العاشر

حددت السلطات يوم الجمعة من شهر تموز موعدا للرحيل على ان يتم ذلك في ساعات الصباح الأولى.

قبل أيام من الموعد بدأ السكان بجمع أغراضهم وعزلها عن بعضها في صناديق أو صرر كبيرة. أخرجت نشمية نقودها المعدنية من صفيحة النفط فيما حفر آخرون مواقع معروفة لديهم داخل الغرف أو باحات البيوت لإخراج أموالهم. كان من عادتهم وضع نقودهم الورقية في القناني حفاظا عليها من التلف أو السرقة. لململت العوائل أغراضها بهدوء ما عدا عائلة عريبي التي فعلت ذلك بضجيج كبير أثار فرحا مدفونا في قلوب الجوار. اضطر ابناء عريبي إلى التوقف عن العمل ثلاثة أيام كي يهيئوا ما لديهم من أخشاب وصناديق معدنية وأفرشة وأسرة ومهود أطفال. كانوا أثناء ذلك يغنون ويهزجون فيتوافد اليهم الأولاد والصبايا من البيوت المجاورة للإستماع والمرح واللعب والمشاكسة دون أن يعبأوا بحرارة الطقس المضنية. طيلة الأيام القليلة التي سبقت الترحيل كان سوادي حميد يتجول في الطرقات متسكعا ويجيب، دون ان يسأل، إنه ليس لديه ما يجمعه سوى قفصي حمام.

باع عبد الحسين دراجته النارية، واشترى مذياعا مستعملا بدلا من ذاك الذي سرق. كان وهو يضع أغراض منزله في الحقائب يستمع إلى أغنية أم كلثوم "انت عمري"، فيطرب لها ويدندن معها: "هات عينيك تسرح في دنيتهم عينيه، هات ايديك ترتاح للمستهم ايديه.. يا حبيبي تعال...". فيما كانت حليمة تفتش عن مصوغاتها لتجمعها في صرة صغيرة واحدة على أن تحملها بيدها.

في اليوم قبل الاخير أكملت مكية الحسن وابنتها مديحة حزم أغراض البيت ووضعتاها في غرفة فاطمة كي يسهل نقلها إلى الخارج، وغادرتا إلى مرقد السيد جار الله. تلك كانت زيارة خاصة ليس لأنها زيارة وداع إنما لإيفاء نذر تعهدت به مكية الحسن يوم قالت إنها سوف تضع دينارا في شباك السيد حين يكبر علي ويعمل. أمام المرقد كان سوادي حميد جمع جوقة من الأولاد بانتظارها. حين رآها من بعيد بدأ عزفه على الطبل وتحلق حوله الأولاد يرقصون. فتحت مكية الحسن كيس الملبس والحامض حلو ونثرته فوق رؤوسهم وهي تتضرع. ترك الأولاد سوادي حميد يقرع طبله وهجموا على الحلويات لالتقاطها من الأرض. لكنهم سرعان ما عادوا إلى الرقص أمامه وحوله وهم يحثون الآخرين على المشاركة. اطلقت مكية الحسن زغرودة قصيرة. لم يسعفها صوتها، فاطلق سوادي زغرودة طويلة رشيقة وسط اعجاب النسوة اللواتي توقفن لتحية مكية الحسن والدعاء لابنها قبل ان يستأنفن سيرهن إلى السوق. شقت طريقها بصعوبة بين الأولاد الذين حشروا أجسادهم أمامها في باب المرقد. رمت دينارا في قلب الشباك المعدني وربطت شريطا أخضر في

مربعاته الصغيرة. تراجعت خطوتين إلى الورا ء وتعالى صوتها بالدعاء.

ذلك النهار جاء مصور جوال فطلبت منه أن يلتقط صورة لابنها. وقف علي أمام البيت بعد أن دهن شعره ومشطه. تطلع في العين السحرية الغامقة، لحظات وشع ضوء الكاميرا في وجهه.

أمضى علي المساء كله في السوق عله يتمكن من الحديث إلى بدرية. كانت نامت ساعة القيلولة بعد أن انتهت من ربط أغراض بيتها، وحين استيقظت عصرا اغتسلت وغيرت ثيابها وانتقلت إلى الدكان بديلا عن مزعل. بدت ذلك المساء أجمل وأرق. كانت فوطتها شديدة السواد وفوق أهداب عينيها ما يشبه الندى. ظل علي يقف بعيدا ويختلس اليها النظر دون أن تسنح له فرصة الحديث معها، فالمشترون كانوا يحيطون بها كأنهم يريدون شراء ما يكفيهم مؤونة شهر. كان يريد أن يسألها أين سيراها في المدينة الجديدة ومتى. هل كان بمقدورها معرفة ذلك؟ حين اشتدت زحمة المشترين خرج مزعل لمساعدتها. ولم يتمكن علي تلك الليلة من الحديث اليها، لكنها لمحته وابتسمت عيناها له أكثر من مرة. ومع ذلك ظل يجوب السوق حتى هبط الظلام واغلقت الدكاكين ابوابها. فعاد إلى البيت وهو يحتفظ بابتسامة عينيها، تلك الابتسامة التي اختزنها في قلبه إلى الأبد.

* * *

منذ الفجر اصطفت سيارات الحمل الكبيرة في الشوارع والساحات. وبدأ الرجال والنساء والأولاد ينقلون أغراضهم وحقائبهم. كانت ماتزال هناك نسمة ليلية عذبة معلقة في الهوا ء ما تلبث ان تتبدد قبل ان تقترب

من الوجوه التي أرهقتها الأيام الماضية. بعد الشروق أكمل عبد الحسين تحميل أغراض بيته وجاء بالسيارة إلى بيت مكية الحسن. اشترك الجميع في نقل الاغراض ورصفها وتثبيتها. حتى أن أناسا غرباء تطوعوا لجمع اغراض العجوز خانزاد وإيصالها إلى المدينة، فيما قام صادق النجار بمساعدة أمه وزوجة أخيه هاشمية. نسي الناس خلافاتهم وأحقادهم وتعاونوا في التحميل والإفطار وتوزيع ماء الشرب حين ارتفعت الشمس وزحفت الحرارة فوق التراب اللامع. تصالح فخذا الكورجة وبيت زامل بعد قطيعة استمرت اكثر من عامين. في ذلك الحين حدثت آخر معركة بينهم. فعند المساء عادت امرأة في الاربعين من عمرها من الكورجة إلى بيتها واشتكت ان بائع البطيخ الأحمر من بيت زامل تحرش بها فهجم ذووها دون ان يفحصوا الخبر ويتيقنوا منه. قيل ان رجالا من الكورجة تقدح عيونهم شررا يحملون البلطات والخناجر وعصي قطعت من أشجار التوت تسللوا إلى حارة بيت زامل وباغتوهم في القتال، فدارت معركة اشترك فيها العشرات. ومع احتدام الاشتباك كان عدد المشتركين من أطراف أخرى يزداد دفاعا عن معارف أو اصدقاء من الجانبين أو لفصل المتقاتلين عن بعضهم أولئك الذين اقتلعوا اعمدة سقائف السوق وهاجموا بها. يومها تدخل خلق كثير لابعاد المدي والخناجر عن الاجساد التي تهاوى بعضها بضربات خاطئة. لم تستمر المعركة أكثر من نصف ساعة اصيب فيها الكثير من الشبان والشيوخ لكن الناجين لم ينسحبوا من الشوارع الا عند حلول الظلام.



طافت سيارات عسكرية في حارات البلدة تحث الناس على الإسراع في الانتقال عبر مكبرات الصوت، فيما طوقت البلدة دبابات ومصفحات واعداد من الجنود. لم يتبين السكان الهدف من ذلك، أهو خوف عليهم أم خوف منهم؟ ربما خشية من التظاهر أو الامتناع عن تنفيذ القرار ذلك ان انباء وصلت إلى السلطات تحدثت عن ان السكان كانوا يتمنون ان يتم تنفيذ الترحيل على يد رئيس الوزراء الذي خطط للمشروع وتحمس له ودافع عنه، الامر الذي فسر على أنه احتجاج على مقتله. لكن الدبابات والمصفحات وناقلات الجند انسحبت حين شاهدت طلائع السيارات متوجهة في قافلة طويلة إلى الطريق العام المؤدي إلى مدينة الثورة وجاءت بدلا منها البلدوزرات والجرافات والحفارات والحادلات وسيارات نقل التراب والانقاض. وما أن شوهدت آخر سيارة حمل وهي تنعطف في الطريق العام حتى بدأت الآلات عملها في البلدة الخالية تحت إشراف جنود ورجال شرطة.

زحفت الآلات نحو البيوت من جميع الجهات المحيطة بالبلدة. كانت الخطة تقضي بان يتم التهديم من الاطراف متقدما خطوة خطوة نحو المركز الذي اعتبر مرقد السيد جارالله. شكلت الآلات طوقا حول السقائف والاكواخ وبيوت الطين التي بدت واطئة خانعة، وأخذت البلدوزرات تتقدم نحو الجدران الطينية التي ما ان تلامسها الارجل الحديدية الضخمة حتى تتقوض تحت ضربات عنيفة قاصمة. خلف البلدوزرات انتشرت جرافات تنقل كتل الحيطان والانقاض إلى سيارات حمل قلأبة لتلقيه في الجزء المتبقي من النهير الآسن الذي بدا ماؤه الملوث أسود تعلوه أبخرة

ساخنة. يلي ذلك صف من الآلات التي تعمل على تسوية الأرض. كانت تزيل كل شيء في طريقها وهي تكشط الطبقة الخارجية للتربة فيظهر قلبها أبيض يلصف تحت أشعة الشمس، وترتفع الأشياء المدفونة إلى السطح: كتب مدرسية، قنان تحتوي على نقود ورقية، بنادق بورسعيد، صناديق فاكهة، صفائح معدنية، أفرشة ترك عليها البول آثارا جافة، بطانيات ممزقة، صور لرئيس الوزراء القتيل، وصحون شاي نقشت عليها صورته ثم صور أخرى لجمال عبد الناصر، منشورات وكراسات لتنظيمات حزبية واجتماعية مختلفة، خناجر، بلطات، حلقات معدنية، علب رصاص، صناديق ذخيرة متنوعة، بنادق آلية، كتل حجرية تشبه الرُقُم، جرار وأوان فخارية مكسورة العرى أو الحافات العليا، يافطات، أختام رسمت عليها صورة حمامة، مجسم كبير لشعار الجمهورية، مجسم آخر لشعار الحزب الشيوعي المطرقة والمنجل، صور لممثلين وممثلات عرب وأجانب، صور لشخصيات من آل بيت النبي، جماجم بشرية قديمة وأخرى حديثة العهد.

ذكريات وتواريخ معلقة على صفحات الجدران أو في أعماق الأرض، حياة غابرة في عالم سفلي تنهض للمرة الاخيرة ما تلبث أن تتحول إلى اشلاء أو غبار، ثم حياة أخرى تنبثق من السعف وجريد النخل وأعواد القصب، فتمضي أخيلة الساكنين، وتطوف أشباحهم في الشوارع والأسواق تعرض ذكريات الذين أعدموا في ساحات مجهولة، والذين قتلوا برصاصة في الرأس أمام مرأى الجميع، والذين اختطفوا واختفوا في الاقبية وسراديب السجون. ذكريات الاشرار والخيرين،

الابرياء والمختلسين، الحالمين واليائسين، البؤساء والشحاذين، الزناة والشرفاء، المجرمين والابرياء، المشعوذات والساحرات، الآثمات والمكافحات، القاسيات والرقيقات. تطل الأشباح من كل مكان تقضمه أسنان الحديد الباترة القاطعة، لتروي حروبهم وهدناتهم، سلامهم ومعاركهم، أدعيتهم وتجديفهم، غضبهم وحنانهم، مخاوفهم وشجاعاتهم. لكن الأشباح العاشقة الملتاعة تهرب إلى أذرع الأمهات، ملجأ الحيارى والمحرومين، والعيون التي أثقلها السهر والدمع تهرب إلى العيون التي قابلتها ذات يوم في عرس أو مأتم أو ختان.

كانت البيوت تئن وتتطاير سقوفها، والسعف يطلق أزيزا سريا مكتوما وهو يتلوى مهروسا تحت العجلات العملاقة التي تطويه طيا أو تسحقه سحقا.

شيئا فشيئا تتقدم الآلات في عمق البيوت التي بدأت تتلاشى من الوجود. ها هي تتحول إلى مجرد تاريخ مدون في ذاكرة أجيال سوف يندثر هو الآخر في زمن ما.

في ذلك اليوم تناقل الناس حكاية صدقتها السلطات الحكومية. قالوا إن الآلات وهي تتجه في سيرها نحو مرقد السيد جارالله كانت تتباطأ وتتوقف كأن قوة خارقة تمنعها من التقدم أو تسحبها إلى الخلف. ونسبوا إلى سائقي الآلات أنفسهم قولهم إنهم وهم يقتربون من المرقد كانوا يسمعون أصواتا عالية تهتف وتستغيث، آلاف الأصوات المختلطة تطلق نداءات متصلة تشبه العويل أو الصراخ. أصوات هادرة كأنما تنبعث من جوف الأرض وتصعد إلى قبة السماء العالية. قال السائقون

إنهم لم يروا بشرا بل كانوا يسمعون أصواتا تصم اذانهم وتبث فيهم الذعر، وان احدى البلدوزرات تعطلت حين لامست جدار المرقد لمسا خفيفا. عندها اصدرت السلطات أمرا بمنع تهديم المرقد والاستمرار بتسوية الأرض من حوله. هكذا ظل المرقد شاهدا وحيدا على تلك الرحلة الطويلة، رحلة النشوء والاندثار والنسيان.

بعد أيام اختفت أجزاء كبيرة من السدتين واختفى "شطيط"، وأصبحت البلدة أرضا مستوية تلتمع تحت وهج الشمس كأنها تستعد لاستقبال مهاجرين جدد. غير أن الأمر بدا وكأن لعنة اسطورية ظلت تلاحقهم عقدا فعقدا وتدفعهم دون إرادتهم إلى الرحيل بحثا عن وهم آخر. وربما يظهر من يعد لهم رحلة ثالثة ورابعة ويقودهم إلى مهاد وسهول وهضاب ويختار بقعة نائية، يهبط من سيارته هذه المرة ويقول: "أفرغوا حمولتكم، هنا بيتي وهنا قبري، فهذه أرض مباركة سوف تعيشون عليها أنتم وأحفادكم جيلا بعد جيل".

تلاشت البلدة ولم يعد لها وجود، وانسحب العمال وآلاتهم وتواروا في شوارع المدينة. وفي ذلك الفضاء المحاط بضوء كثيف وامض كان ضريح السيد جار الله ينتصب وحيدا. ليس ثمة من يجاوره، وليس من أحد يزوره أو يرعاه.

تلك الأيام بدأ الرجل الاعمى يتردد على نقطة تفتيش عسكرية اقيمت هناك على مبعدة من الضريح. هكذا فجأة نصبت خيمة صغيرة وسط الأرض المقفرة لجنود كانوا يتناوبون للقيام بمهمات غير معروفة. إنهم موجودون هناك ليل نهار يدخلون إلى الخيمة أو يخرجون منها،

واحيانا يمضون وقتا طويلا خارجها يطبخون أو يدخنون ويتحادثون. من حين لآخر كانت تتوقف قربهم سيارة عسكرية يفرغون حمولتها وتغادر. عندها يأتي الرجل الاعمى، يقف حذرا مترددا على مقربة من الجنود. يحدث ذلك حين ينتابه أحساس مضن بالجوع. لكنه سرعان ما يعود يحث خطاه في الفراغ الموحش حاملا معه قطعا من خبز الجيش ويتوارى في الغبار والأبخرة الضبابية الساخنة.

* * *

في ذلك اليوم القائظ توقفت قوافل السيارات في أرض برية واسعة فاستقبلها أدلاء يحملون سجلات باسماء المرتحلين إلى مدينة الثورة. كانت الأرض مقسمة إلى قطاعات تحمل ارقاما: قطاع ٣٠، قطاع ٤٨، قطاع ٥٠. وكانت قطع الأراضي مرقمة أيضا. وعلى أساس تلك السجلات كان الرقم ٢٤ من نصيب مكية الحسن. غير أن التوزيع تم بطريقة عشوائية، فالأسر التي كانت متجاورة أصبحت متباعدة، تفصل بينها مسافات طويلة، بينما كانت أسر متباعدة، تجهل بعضها جهلا تاما، غدت متجاورة لا يفصل بينها أي حاجز، الأمر الذي خلق احساسا بالإغتراب في الأيام الأولى.

كانوا، وهم يهبطون من السيارات، ينتشرون فوق الأرض الترابية الساخنة، يفتشون عن مواقع أراضيهم وعن جرعة ماء. كانت الأرض تلهب أجسادهم إذ تلتقي مع الرياح الحارة. استندت مكية الحسن على مقدمة السيارة. رفعت كفها فوق عينيها لتتقي شدة السطوع. نظرت إلى النهايات المتصلة بالافق وقالت:

- "أرض حماد".

وقال سوادي حميد:

-"ريحها سموم".

رأى علي العجوز خانزاد تدور بين كتل البشر والسيارات، فيما كان المتطوعون، الذين انفصلوا عن أسرهم ورافقوها يفتشون عنها. لكنهم سرعان ما عثروا عليها وقادوها إلى مكان ليس ببعيد حيث تقع أرضها.

سأل سوادي حميد مكية الحسن عن رقم قطعتها فتبين أنه قريب منها، فيما تمنت أن تكون قطعة نشمية إلى جوارها. لكنها طلبت من علي أن يعرف اين أصبح عبد الحسين وحليمة. كان ساهما يفتش عن وجه بدرية بين آلاف الوجوه المتعبة التي أرهقها الطقس الحار وعناء الأيام الماضية. عند انتصاف النهار عرف الجميع مواقعهم. أُنزلت الأغراض وخُيل لعلي أن بدرية ليست في حارتهم، وربما ليست في قطاعهم، عندها جمد قلبه، وأحس بارتعاش في ساقيه.

أخذت مديحة تنظف الأرض من الأشواك، وقدم عبدالحسين يحمل مطرقة ووشيعة خيوط. دق أوتادا في الزويا الأربع لقطعة أرض مكية الحسن وربطها بخيط، علامات الحدود. وسمع صرخة أطلقتها مديحة: "ابو سليم انتبه عقرب". رأى العقرب تتسلل قرب قدمه فضربها بالمطرقة وهرسها، وراح يرشد علي إلى كيفية قتل العقارب.

أمضوا بقية نهارهم في التنظيف، ورشت مديحة مواد لقتل الحشرات جلبها عبد الحسين حول قطعة الأرض. ومثل أسلافهم الأوائل

أقام الرجال في أراضيهم أماكن مخصصة لقضاء حاجاتهم من القصب والحصران، فيما انصرف الأولاد الى ملاحقة العقارب التي قدمت من الأرض الممتدة شرق المدينة. كانوا يحملون العصي والفؤوس والأشرطة المعدنية التي يستخدمونها في ألعابهم ويلاحقون العقارب وهي تنساب فوق التراب صفراء اللون صغيرة الحجم، إلا انها كانت تبث الرعب في قلوبهم بسبب سرعتها الفائقة. كانت تمرق قرب أقدامهم دون أن يروها أحيانا خاصة وقت الغروب، وإذا شاهدها أحدهم سرعان ما تنهال عليها العصي والفؤوس والحجارة.

هبط الليل. أوقدوا النيران في كل مكان، فالعقارب عادة ما تظهر في الظلام. اضاءوا الفوانيس، وأوقدوا مشاعل القناني النفطية. ذوو الاسر الكبيرة، نصبوا خياما لقضاء عدة أيام ريثما يبدأون بتشييد منازلهم. نام الأطفال، واستلقى المسنون المنهكون في العراء قلقين، فيما ظل آخرون ساهرين يتحلقون حول النيران التي يطعمونها الأشواك الجافة.

كانت مواقد الضوء الليلية علامات للمشاة اليقظين وللسائرين في نومهم، وللهائمين الباحثين عن حبيباتهم. كان علي بينهم يمشي مهتديا بالمواقد يتفقد الأسر التي يعرفها لكنه لا يستطيع ان يسأل ايا منها عن بدرية. طاف في طرقات وهمية تقطعها الصناديق والصرر والأفرشة التي انتشرت تحت السماء ونجومها اللامعة، ولم يعثر على شيء.

مع إشراقة الشمس المبكرة أفاق النائمون على ضجيج صهاريج تبيع مياه الشرب وجلبة الأولاد الذين بللوا اجسادهم من رذاذ الماء المتطاير لحظة تدفقه من خراطيم ضخمة داخل براميل كبيرة محملة في شاحنات.

عشرات الصهاريج توزعت في أماكن متفرقة من المخيم، تتوقف امام كل عائلة، تملأ براميلها بالماء، ثم تنتقل إلى عائلة أخرى. وحين تنفد حمولتها تأتي أخرى بحمولة جديدة. واستجابة لطلب السكان بدأت صهاريج تنقل الماء الخاص بالاستخدام اليومي.

سمع علي أن تسواهن بائعة السمك افتتحت أول سقيفة لاستئناف عملها. فذهب إلى هناك فوجد سقيفتين إضافيتين. وخلال أسبوع تكاثر عدد السقائف وأصبحت سوقا كبيرة، وراح علي يذهب إلى هناك كل يوم عله يعثر على سقيفة جديدة تطل منها بدرية على المشترين بعينيها الضاحكتين.

* * *

في رحبة فسيحة رفعت خيمة كبيرة تجمع فيها الرجال بانتظار الوليمة التي أعدها عريبي وفاء لنذر. ذبحوا ثلاثة خراف طبخت في قدور كبيرة. خارج الخيمة كان الأولاد يتدافعون بانتظار حصتهم من الطعام، فيما اصطفت الفتيات في خط طويل لأخذ حصص أسرهن بأوان فارغة جلبنها معهن.

قبل المساء بقليل طافت امرأة بين الاسر المتفرقة في العراء تنادي:

- "يا سامعين الصوت صلّوا على النبي.. رحم الله والديه اللي شاف طفل تايه". سمعها الأولاد فهرعوا ناحيتها وأخبروها بأنه لدى خانزاد. فرحت المرأة وانبسطت ملامحها فجأة. حين رأى الطفل أمه ركض ناحيتها واحتضنها ثم انسحب منها وراح يتطلع في الوجوه المندهشة الضاحكة.

كانت خانزاد عثرت على الطفل قرب السوق صباح ذلك اليوم. كان حائرا لا يعرف اي طريق يسلك. لم تكن هناك طرق، ثمة ممرات ابتكرها الناس بين أغراضهم وصناديقهم. وحين اجتمع حوله عدد من النسوة اللواتي أخذن يسألنه عن اسم امه أو ابيه راح يبكي. قبلته خانزاد وطمأنته وقالت إنها ستأخذه معها. قبل ذلك مرت على الباعة في السوق وابلغتهم بأن الطفل معها إذا ما سأل أحد عنه. أطعمته خبزا وشايا. وعند الظهيرة اكلا معا من طعام الوليمة. لكنه امضى فترة ما بعد الظهر بالبكاء. تذكرت حفيدها بوران ورئيس الوزراء الغائب الذي قالت انه لم يف بوعده بإعادته اليها من أعماق النهر، ثم القت عليه اللوم لانقطاع المساعدة المالية التي كان يرسلها لها بين حين وآخر. رآه علي الطفل التائه فتذكر ذلك اليوم الذي أخذه فيه والده إلى عرس ابن أحد معارفه. كان صغيرا آنذاك. وقف يتطلع في الغجريات اللاتي كن يرقصن على ايقاع فرقة رجال بينهم مغن شعبي. وهو يتابع حركة اجسادهن وغنجهن إذ يستعرضن امام المدعوين ويرمين فوطهن على من يختـرنه سرى النعاس في عينيه. حاول أن يتغلب عليه بأن صعد إلى سطح الدار كما اقترح والده لكنه عاد بعد قليل وقد أثقل النعاس لسانه. فاضطر والده إلى أخذه إلى بيت رجل يشتغل معه في معامل الطابوق. قطعا أرضا خالية، مشيا فيها مسافة طويلة. كان علي يسحب قدميه بصعوبة في الليل المزين بالنجوم اللاصفة. وحين وصلا بدا البيت كما لو أنه ينتصب وحده في البرية ما يخلق احساسا موحشا بالفضاء المحيط.

ترك سلمان اليونس ابنه لدى تلك العائلة وعاد إلى الحفل. كان البيت مظلما تماما، لم يشعلوا أي ضوء. أعدت له فتاة فراشا فوق دكة خشبية. لم ير الفتاة، كان يسمعها فقط وقالت:

- "نم سأغطيك، قد تبرد في الليل".

غطته وانصرفت. عافت نفسه رائحة الغطاء. شعر أنه غريب، والغطاء غريب، والفراش غريب، وأنه لا يستطيع النوم. اغمض عينيه فأحس أن كلبا يحتك بالدكة ويتشمم الفراش. ظل ساكنا يحدق في السماء التي كانت نجومها تقترب أكثر كلما أمعن النظر فيها. ثم اخذ يتبين الأشباح التي تتحرك في ظلام الحوش وبدأ ينشج. وعندما جاءت الفتاة لتطمئن عليه قال لها بصوت مخنوق:

- "لا اريد أن انام، اريد أبي".

وصاحت الفتاة بتوسل واستعطاف:

- "الولد ما يقبل ينام".

كان صوتها رقيقا ناعما.

أقبل الرجل وسأله ان كان يود العودة إلى العرس فأجابه بالايجاب وهو يبكي. حاول الرجل استرضاءه وتهدئته بأنه حين يغمض عينيه سينام فورا ويكون الصباح، وسيأخذه إلى بيته. لكن علي استمر يبكي. فأعاده الرجل، عبر الطريق الطويل المعتم نفسه، إلى الحفل الذي شاهد اضواءه من بعيد. تلك الليلة ظل يستعيد الرائحة الغريبة للغطاء قبل أن يهيمن عليه النوم.

* * *

بدأت سيارات نقل الطابوق والرمل والجص والاسمنت تتوافد على المكان، فيما استمرت الصهاريج بتوفير الماء. وانطلقت حركة بناء واسعة، إذ أمرت الحكومة بالاسراع بتشييد المنازل خوفا من انتشار الامراض وتفاديا لتكرار السقائف ومخيمات بيوت الطين.

في الأيام الأولى انضم علي إلى جموع الشباب الذين وجدوا فرص عمل كثيرة في البناء. أخذ يستيقظ فجرا على صوت والدته قبل ادائها الصلاة. ومع شروق الشمس يخرج باحثا عن عمل، وسرعان ما يجد له فرصة بين العمال الآخرين الاكثر قوة والاصلب عودا منه. لم يهتم كثيرا للعمل والآجور قدر إهتمامه بالعثور على بدرية في مكان ما من المدينة التي بدأت بيوتها ترتفع وتتضح معالم شوارعها وساحاتها العامة. وإذ لم يجد لبدرية اثرا في الاماكن التي عمل فيها راح ينهض من نومه بصعوبة ويذهب للعمل متكاسلا. لم يكن يرئد أن يعمل لكن الخجل من والدته، التي كانت تعتمد عليه كمعيل لها ولاخته، يدفعه إلى الخروج كل صباح. وبعد ساعة أو ساعتين يعود. وقد يتأخر احيانا حتى المساء. وعندما تسأله والدته يجيبها بأنه لم يحصل على عمل فجلس في المقهى. لكنه كان يجوب الشوارع والأسواق والتجمعات السكانية البعيدة عله يرى بدرية هناك. شعرت مكية الحسن بالقلق على ابنها، وساورها إحساس بأن أملها به يوشك أن يضيع، غير أنها كانت تصر على التفاؤل وتقلل من أهمية بطالته وتسكعه وكسله وانشغاله الدائم بشيء ما تجهله. كانت تردد مع نفسها "شاب، سيعود إلى رشده بعد حين".

بمساعدة أقارب لها شيّدت غرفة واحدة ومرافق صحية بعد تسييج الواجهة والجوانب فتخلصت من العيش في الصرائف، وانتظم بيتها في سلسلة البيوت التي تقابل بعضها في صفوف متشابهة بأبواب ونوافذ من حديد مؤطرة بستائر ملونة. وبنيت في أعلى البيوت اسيجة تطال قامة المرء لتحجب الرؤية اثناء النوم فوق السطوح في أشهر الصيف. افتتحت اسواق ودكاكين في كل حارة من حارات المدينة التي اكتضت بالبشر القادمين من اماكن مختلفة حتى بدت خليطا ملونا أصبح واحدا من مظاهرها الاجتماعية المميزة. كما وفدت اليها أسر عدد كبير من المفصولين السياسيين أو الذين أطلق سراحهم مؤخرا. انتشرت المقاهي التي يقصدها العاطلون عن العمل والراغبون في مشاهدة التلفزيون ذلك ان بيوتات كثيرة لم تكن قادرة على شراء أجهزة لها. لكن السلطة الجديدة لم تف بوعدها الذي قطعته لسكان خلف السدة بتنفيذ المشروع كما رسمه رئيس الوزراء القتيل والذي يقر بأن توزع قطع الاراضي مجانا. فارسلت المخاتير إلى أرباب الأسر لابلاغهم بدفع مبالغ مالية مقابل ذلك. ولم تعبد الطرقات الفرعية الكثيرة. ما تعبد هو شارعان رئيسيان الأول يمتد من "الثورة الأولى" إلى "منطقة الداخل"، والثاني من "ساحة ٥٥" حتى "الشركة". ولأن الشوارع ترابية فما أن لامستها أول أمطار ذلك الشتاء حتى تحولت إلى طين ووحل فاضطر الموظفون وطلبة الجامعات إلى استخدام حذاءين، أحدهما للشوارع الموحلة والثاني للشوارع المعبدة. كما اهملت البلدية المدينة الجديدة وتركتها من دون خدمات لسنوات طويلة.

يخرج علي كل يوم، يطوف الشوارع، يتطلع في الوجوه والأبواب والنوافذ يفتش عن بدرية التي تسكن في جزء ما من المدينة. هكذا من المفترض ان تكون وإلا أين ذهبت. تذكر أنه في يوم الترحيل شاهد شقيقها مزعل يحمل أغراض بيتهما إلى شاحنة. وشاهد بدرية تحمل على رأسها صندوقا خشبيا كبيرا وتضعه على حافة الشاحنة ليسحبه مزعل منها إلى مقدمتها. هل شاهد علي ذلك أم خُيِّل اليه؟

يستعيد علي ابتسامة عينيها، ويتساءل: هل تحبه؟ هل تعرف إنه يحبها؟ لا يدري. ما يعرفه هو أنه يتتبع ذلك النداء الغامض الذي يصدر من أعماقه ويدفعه إلى البحث عنها في أماكن مختلفة. ومن مذياع بعيد يأتيه صوت عبدالحليم حافظ حزينا موجعا، ويردد معه "بتلوموني ليه، لو شفتم عينيه، حلوين قد ايه....".

ذلك النهار اتخذ وجهة جديدة اعتقد أنه سيجد فيها أثرا لها. هب نسيم يندر مثله في ذلك الموسم فحمل إليه رائحة شعرها، نفس الرائحة التي غمرته بها حين اقترب منها ليلة الموكب. أحس ان قلبه يخفق ويتقلص وهو يتذكر تفاصيل ما حدث.

* * *

طواف ليلي أو نهاري، دوران دائم تدور معه البيوت والطرقات والنوافذ والأسيجة والساحات. سكون متحرك يقظ يغيّر مواقع النجوم ويبدل مواقيت الضحى والغروب والغسق. تجوال أزلي تختلط فيه الاسماء والوجوه والصفات وتذوب فيه ملامح بدرية وتتلاشى في كثافة

الضوء وغزارته، أو في عتمة الظلام المحشوة في الازمنة العتيقة التي لا يخترقها سوى السائرين في نومهم، والجوالين في البراري الواسعة. نسي نفسه ونسي أمه. لم يعد يرى سوى بدرية في أي موقع ينظر اليه، حتى بدأت ملامحها تضمحل وتخبو مرة وتنهض مرة بوضوح متجسدة أمام عينيه مثل رمز أو اسطورة أو حكاية تلاها المهاجرون الأوائل أو العرافون أو السحرة. حكاية في مخطوط قديم، وهم أبدي تتوارثه الاجيال المقيمة والمهاجرة، أثر يتوافد اليه العشاق من كل مكان.

استبد الخوف في قلب مكية الحسن، سألته عدة مرات فلم يجب، حتى خيل إليها أن ابنها مريض. حدث ان تأخر كثيرا فخرجت تنتظره في أول الطريق، ليس هناك أحد سوى الظلام العميق، غلبها النعاس فنامت ولم تستيقظ حتى اشرقت شمس اليوم التالي. في بيتها اخرجت صورته التي التقطت له يوم وفاء النذر وخبأتها مع صورة رئيس الوزراء. قبّلت الصورة عدة مرات وشمتها بعمق ثم دستها في صدرها. تطلعت في صورة رئيس الوزراء، تأملت الرتبة العسكرية، وابتسمت لابتسامته الهادئة، وتمنت ان يكون مايزال على قيد الحياة.

انتظرت مكية الحسن كثيرا، انتظرت حتى اختلط لديها الليل والنهار ولم تعد تميز بين الاشياء والالوان.. تذكرت احزانها الأولى، اشراقات ابنها الأولى. وشيئا فشيئا طغى عليها اليأس واحست بالهرم المبكر. أضنى عينيها الدمع والسهوم والتحديق. تشهق بالبكاء وسط جاراتها وتنشد:

أمشي بهيمة (بريّة) والتفت

صديت لن ابو بشت (عباءة)

شفتك يا خويه وأمّنت

علي بمه......

***

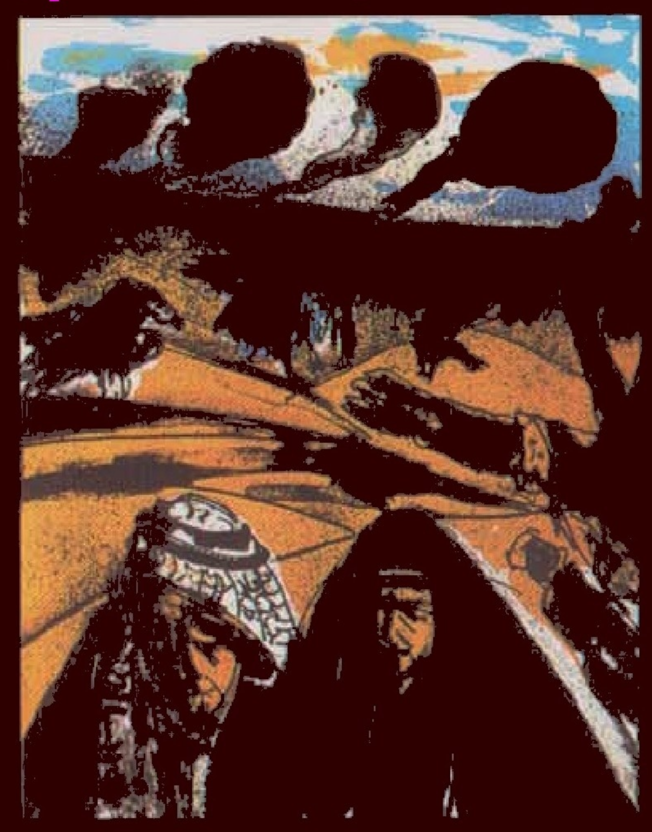
لم يعد علي يعمل ولم يعد يواصل دراسته، وأمه صامتة، لا تحدثه في ذلك، تخشى من رد فعل عنيف منه. ولتلبية احتياجاتها المالية افتتحت سقيفة لها في طرف السوق لبيع الحلويات تساعدها مديحة التي اقسمت الا تتزوج حتى يتزوج علي.

ذات مساء وصلت صبيحة إلى بيت والدتها. بدت سعيدة بحياتها الزوجية مع ابن خالتها يوسف. قالت انه جلب لها جهاز تلفزيون. بالغت كثيرا وهي تتحدث عن زوجها وعن عمله في بيع وشراء الاشياء المستعملة. وإذ تسألها النسوة عن عمله تقول: "تاجر تحفيات". قابلت علي ذلك اليوم ودعته إلى زيارة بيتها فسألها عن الجيران. راحت تعدد له الاسماء وهو يتطلع إلى شفتيها، لكنها لم تذكر بدرية بينهم.

وهو يمشي في الشوارع العريضة كان ينظر إلى البيوت، وإلى وجوه النسوة الجالسات امام الأبواب وقت العصر فربما يشاهد بدرية هناك تتحدث وتضحك بعينيها الحالمتين. سأل أولادا يلعبون عن المنطقة التي كان يجوب شوارعها فقالوا له: "الشركة". مضى يحث خطاه حتى انتهى إلى آخر الطريق، ومن هناك انعطف في شارع رئيسي عرف في ما بعد انه يؤدي إلى ساحة ٥٥ . دخل طرقا فرعية لا يعرف إلى اين ستقوده،

وإلى اين ستنتهي. كان قلبه ينط من صدره ويكاد ينخلع حين يرى تجمعا في سوق أو أمام مبنى، وسرعان ما يجد نفسه هناك وسط باعة الفواكه والخضار والاسماك. يمتلئ صدره برائحة الخيار والبطيخ أو رائحة البرتقال. كلا، بدراو ليست هنا، عليه ان يفتش في مكان آخر. لبدراو رائحة أخرى لا تشبه تلك الروائح التي تزخر بها السوق، لبدراو رائحة التراب أو الاعشاب البرية، لبدراو رائحة الحياة أو الموت.

مرة، وهو في بحثه المتواتر وتجواله المضطرب وجد نفسه عند حافة المدينة، ليس أمامه سوى أرض ممتدة عميقا حتى الأفق البعيد، أرض خالية وعرة مهيأة لمهاجرين جدد كأسلافه. توقف هناك، توقف طويلا، يحدّق في وحشة البرية الكثيفة المتماسكة لا يعرف أي طريق يسلك كي يعود إلى بيته. تردد في التوغل بين المنازل النائية، إذ شعر انها مغامرة كالدخول في غابة مجهولة مظلمة. استبد به التعب، وانطفأ ذهنه. تذكر الرجل الاعمى وتمنى لو يراه تلك اللحظة، ليته هناك، عندها سيأخذه من يده، وبأثر الضوء الغزير في قلبه سيوصله إلى بدراو. سوف يرميه في حجرها من بعيد فيهبط هبوطا بطيئا كهبوط ريشة من علو شاهق. وما أن تمسكه بيدها حتى يحلق معها في فضاء أزرق، جسدان ملتحمان يلتمعان في الشعاع الأثيري الشفاف، ويشقان طريقا لهما عبر الكواكب والنيازك والسحب والرياح.



منذ نهاية الخمسينات الماضية، وعلى مدى ربع قرن، حملت الموجات المتوالية آلاف المهاجرين من الجنوب إلى ضواحي بغداد، حيث استقرت تبحث عن حياة جديدة.

ومن خلال معاناة عائلة، يرصد عبد الله صخي التحولات الكبرى في العراق الحديث.

أحداث ومتغيرات عاصفة، وأحلام، وحب وجوع، وصراع دام. وبينما كان الناس يبنون بيوتاً جميلة من الطين، كانت السلطات الفاشية تكتم أنفاسهم وتبني أفظع السجون في العالم.

ISBN:2-84305-970-X



